كتاب اليوم



ليلة العاصفة

يوسف عز الدين عيسى



● المؤلف فى سطور

● ● ● ● ● ● ● ● ● ● ● ● ●

● الدكتور يوسف عز الدين عيسى

● تخرج فى كلية العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٣٨ . وعين معيدا بها عقب تخرجه مباشرة

● فى عام ١٩٤٢ انتقل إلى جامعة الاسكندرية عند إنشائها

وسافر فى بعثة إلى جامعة شفيلد بانجلترا حيث حصل على الدكتوراه فى علم الحشرات . وعين مدرسا بالكلية . ثم تدرج فى وظائف أعضاء هيئة التدريس حتى وصل إلى درجة الاستاذية . وهى أعلى درجة فى الجامعة . وهو الآن استاذ علم الحشرات بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

● على الرغم من دراسته العلمية وبحوثه التى نشرت باللغة الانجليزية فى كبرى المجلات العلمية العالمية . فلقد اسهم فى الادب بإنتاج غزير رفيع المستوى . وذلك بشكل متواصل على مدى اكثر من اربعين عاما منذ عام ١٩٤٠ حتى الآن . حيث مارس جميع فنون الادب : الرواية والدراما المسرحية والقصة القصيرة والقصة القصيرة الطويلة والدراما الاذاعية والتليفزيونية والمقال الادبى والبحث الادبى والاحاديث والندوات الادبية والنقد الادبى والفيلم السينمائى (القصة والسيناريو والحوار) .

● يعتبر رائد الدراما الاذاعية . وواضع اسسها فى مصر والشرق الأوسط . حيث تمكن من تحويلها إلى ادب ذى مستوى رفيع . تاثر به عدد كبير من مؤلفى جيله والأجيال التالية . ويبدو اثره واضحا فى عدد كبير من اعمالهم فى المضمون والشكل

● من رواياته : « الرجل الذى باع راسه » و « الواجهة » .

ومن مسرحياته : « زوار » و « نريد الحياة » و « فى قطرة ماء » و « غرفة بلا نوافذ » (التى حصلت على الجائزة الاولى فى مسابقات المسرح بجامعات الجمهورية عام ١٩٦٦)

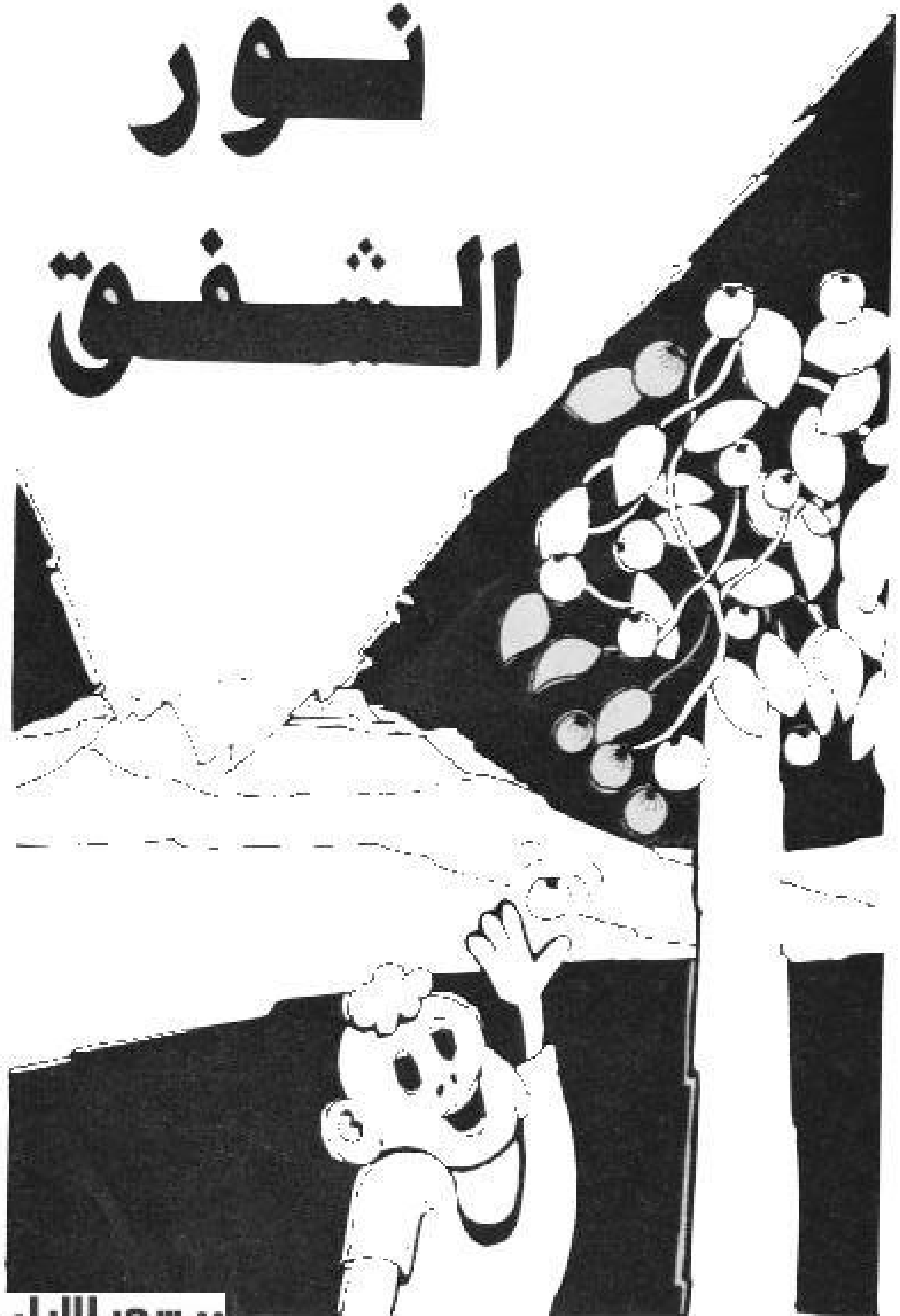
ولقد كتب نحو ثلاثمائة وستين عملا دراميا فى مصر والخارج . منها « عدو البشر » و « عواصف » و « العسل المر » و « اليوم المفقود » و « لا تلوموا الخريف » (التى حصل بها على جائزة الدولة التشجيعية فى الدراما) . و « الاب » و « المثال » و « الرياح البنفسجية » و « عجلة الأيام » و « العبقرية تبكى » و « البراعم الخضراء » و « الأيام التى مرت » و « الغد المجهول » و « ذكريات حزينة » وعشرات غيرها .. كما كتب نحو مائتى قصة قصيرة

● من بحوثه الادبية « عالم وليم فوكنر » و « الادب العلمى عند جول فيرن » و « النهاية الماساوية لفرجينيا وولف » .

● حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى ووسام الجمهورية من الطبقة الثانية

● الغلاف بريشة الفنان
الأستاذ حسين بيكار

نور الشفق



١

بالقرب من سفح أحد الجبال تقع هذه القرية . الجبل تكسوه الأشجار دائمة الخضرة وكأنه ذراع تحتضن القرية من ثلاث جهات ، وتبدو المنازل نظيفة متناسقة الألوان ، تحيط بمعظمها حدائق عامرة بالأزهار وأشجار الفاكهة .

كان الشارع فى تلك اللحظة خاليا من المارة ، والشمس تبدو شاحبة تطل وتغيب خلف سحاب متقطع . لم يكن الجو شديد البرودة على الرغم من وجود بقايا ثلوج متناثرة على حافة الطريق ، كانت قد هطلت على القرية منذ نحو أسبوع . انطلقوا يغنون ويمرحون متشابكى الأيدى . طفلة فى نحو الثامنة على يمينها ويسارها طفلان ، أحدهما فى نحو التاسعة والآخر فى نحو العاشرة تركت الطفلة يدى الطفلين وصاحت قائلة :

— انظرا ، تفاح أحمر ناضج .

قال الطفل الأصغر :

— هيا نتسلق سور الحديقة ونقطف بعض الثمار .

قال الطفل الأكبر :

— اطلع انت الشجرة . أنا لا أنسى الرصاصة التى كادت تقتلنى فى العام الماضى عندما قطفت برقوقة من حديقة « قلب الأسد » .

قال الطفل الأصغر :

— أنا لا أخشى ضرب الرصاص . بيت من هذا ؟

قال الطفل الأكبر :

— بيت « الغضبان » . لو رآك قد يضربك بالرصاص .

قالت الطفلة :

— لن يرانا أحد . التفاح لذيذ .

قفز الطفل الأصغر فوق سور الحديقة وتسلق الشجرة فى سرعة ومهارة ، وقطف تفاحة أخذ يقضمها . فصاحت الطفلة قائلة :

— لا تأكل وحدك . أقطف بسرعة والق إلينا بالتفاح لنأكله معا .

اعجبته تفاحة كبيرة الحجم أراد أن يحتفظ بها لنفسه ، فوضعها فى جيب سرواله ولكنها سقطت على أرض الحديقة لوجود ثقب فى الجيب ، فأخذ يقطف ويلقى إليهما بالثمار . بعد نحو خمس دقائق صاحت الطفلة قائلة :

— اهبط . اهبط بسرعة . أسمع صوت شخص خلف الباب .

فى هذه اللحظة فتح باب البيت واطل منه « الغضبان » بقامته القصيرة ووجهه العبوس وصاح قائلا :

العيال . العيال سرقوا التفاح . لن يفلت الأوغاد من يدى . ساضربهم بالرصاص .

أسرع الطفل بالهبوط فالتوت قدمه وهو يرتطم بالأرض . وجرى نحو سور الحديقة وهو يعرج . وبينما هو عند قمة السور صوب « الغضبان » بندقيته نحوه واطلق رصاصة أصابته فى ساقه فسقط على أرض الشارع . أسرع الطفلان إليه وتبعثر التفاح منهما وحملا الطفل الجريح وانطلقا به وجسداهما يرتجفان من الخوف ، والطفل الجريح يئن أنينا خافتا .

استدعى والد الطفل الجريح سيارة الاسعاف التى نقلت الطفل

إلى مستشفى القرية وبعد أن انتهى الطبيب من تضميد جرحه هرول الأب حاملا بندقيته نحو منزل « الغضبان » . أخذ يدق الباب بعنف قائلا بأعلى صوته :

— افتح الباب يا « غضبان » . افتح يا جبان . سأضرب ابنك بالرصاص .

أطل الغضبان من باب منزله وبندقيته فى يده وقال :

— إذا كنت مصمما على ضرب ابنى بالرصاص فابحث عنه خارج المنزل . فهو ليس هنا .

— أنت كذاب . ابنك فى المنزل يا جبان . سأضربه بالرصاص .

— اضربنى أنا بالرصاص إذا اردت . وسوف تندم على ذلك .

— لا ، لن أقتلك . إذا قتلتك فسأريحك من العذاب . ولكننى سأقتل ابنك لأعذبك وأحرق قلبك .

تجمع عدد هائل من أهل القرية أمام منزل « الغضبان » وكأنهم يتفرجون على مشهد مسرحى . صاح طفل صغير قائلا :

— أنا أعرف مكان « قرنفل » ابن « الغضبان » .

قال « القرفان » والد الطفل الجريح :

— أين هو ؟

— عند البحيرة .

اتجه « القرفان » نحو البحيرة . وكان كلما سار بضع خطوات يتجمع خلفه مزيد من أهل القرية . وعندما وصل الموكب إلى البحيرة كان « قرنفل » يجذب السنارة . أشرق وجهه بالفرحة قائلا :

— سمكة كبيرة . اصطدت سمكة كبيرة .

قال « القرفان » ساخرا :

— اصطاد سمكة كبيرة . سأصطاده هو بالبندقية .

أطلق الرصاص على « قرنفل » فأصابته طلقة فى ذراعه أطاحت بالسنارة من يده . فصرخ وانفجر يبكى بكاء هستيريا . وانطلق يعدو باكيا صارخا والدم يسيل من ذراعه . صاح « القرفان » قائلا :

— رصاصة أخرى فى قلبه ستنهى صراخه .

أطلق رصاصة أصابت الطفل فى كتفه فسقط على الأرض . وانقسمت القرية إلى فريقين متحاربين . فريق مع « الغضبان » وفريق مع « القرفان » . واستمر اطلاق الرصاص يدوى وسقطت عشرات الضحايا .

● ● ● ●

٢

فى مكان منعزل بالقرب من البحيرة يوجد معبد كانت بعض جدرانه قد تهدمت بفعل زلزال مدمر منذ زمن بعيد . وقتل عدد كبير من الذين كانوا بداخله لحظة الزلزال . ولم يفكر أحد فى ترميمه أو إعادة بنائه فبقى مهجورا أكثر من مائتى عام .

ويتعجب الناس لتصدع المعبد وبقاء برجه سليما .

نشأت أساطير عن ذلك المعبد يتناقلها سكان القرية جيلا بعد جيل حتى أصبحت كالعقائد الراسخة فى أذهانهم . فهم يعتقدون أنه ملىء بالأشباح والأرواح الشريرة التى تظهر عند حلول الظلام . كما يعتقدون أن أية طفلة تقل سنه عن عشر سنوات لو جرات على دخول برج هذا المعبد بعد غروب الشمس ودعت

دعاء لأى انسان غيرها فان دعاءها يستجاب . ولكن الطفلة تموت ولا يقدر لها الخروج من البرج . ولذا يحذر أهل القرية بناتهم الصغيرات من دخول ذلك المعبد او الاقتراب منه خوفا على حياتهن .

ذات مساء . وقفت أمام المعبد طفلتان فى نحو التاسعة من عمرهما . إحداهما تدعى « نور الشفق » والأخرى تدعى « عين الغزال » .

قالت « نور الشفق » لصديقتها « عين الغزال » :

— ادخل البرج . هل تدخلين معى ؟

— أنت تعلمين ما يحدث لنا لو دخلناه .

— أريد أن اعرف ما بداخله . كل الناس يخافون من دخوله ، لماذا يخافون ؟

— إبى وامى حذرانى من دخوله . ويقولون إن بداخله اشياء مخيفة .

— هل دخلاه ؟

— دخلاه ؟ لا احد يجرؤ على دخوله .

— وكيف علما بذلك ما داما لم يدخلاه ؟

— كل الناس يقولون إن من يدخله من البنات الصغيرات امثالنا يمتن .

بكت « نور الشفق » وقالت :

— حضرت الليلة لادخله .

— تدخلينه ؟ ! ولماذا ؟

— أريد أن اموت !

— تريدين أن تموتى ؟ ! ومع من سالعب إذا مت انت ؟ .

— العبى مع « عين القط » .

— انا لا أحب « عين القط » . أحبك انت .

— لا اريد أن اعيش . سادخل البرج .

— ولماذا تريدين الموت ؟

— الا تعلمين ؟

— لا . لا أعلم .

— الا تعلمين اننى رسبت فى الامتحان ؟

— لا تكونى عبيطة . ستنجحين فى المرة القادمة .

سالت دموع « نور الشفق » على خديها فأخذت تمسحها بيدها ، وفى هذه اللحظة سمعت « عين الغزال » بكاء خافتا صادرا من مكان قريب منهما . قالت لنور الشفق :

— أسمع بكاء .

— انا التى أبكى .

— يوجد هنا شخص آخر يبكى . اخشى أن يكون صوت أحد الأشباح التى خرجت من البرج .

سمعتا صوت امراة تقول :

— اسمعى يا حبيبتى .

صرختا فزعا عندما سمعتا صوت المرأة . قالت المراة :

— لا تخافا منى فلن أوذيكما .

أمسكت « عين الغزال » يد صديقتها قائلة :

— هيا نبتعد عن هذا المكان . هيا نجرى .

قالت المراة :

— لا تخافا . لا تجريا . لو جريتما فستنطلق جميع الأشباح تعدو خلفكما .

تسمرتا فى مكانيهما . قالت « نور الشفق » :

— ها نحن أمامك ، ماذا تريدين منا ؟

قالت المرأة :

— ما اسمك يا حبيبتى ؟

— « نور الشفق » .

— اسم جميل مثلك . هل تقبلين اداء خدمة لامرأة مسكينة ؟

— خدمة ؟ ما هى هذه الخدمة ؟

— أتوسل إليك أن تدخلى البرج من أجلى .

— لا . هذا غير ممكن .

— سمعتك الآن تقولين إنك ترغبين فى دخول البرج .

— غيرت رايى ، لن ادخل .

بكت المرأة ، فقالت لها « نور الشفق » :

— لماذا تبكين ؟

— ابكى لأننى مسكينة وحزينة . لو كنت رزقت بصبية جميلة مثلك لما فكر زوجى فى هجرى . ليس لى أبناء ، لا بنت ولا ولد .

قالت « نور الشفق » :

— ولماذا لا يوجد لك ابناء ما دمت متزوجة ؟

— أنا عاقر ، لا أنجب اطفالا . هل تقبلين يا حبيبتى دخول البرج لتدعى لى أن أنجب اطفالا ؟ لقد هددنى زوجى بالانفصال عنى إن لم أنجب له أبناء ، وأنا وحيدة فى الدينا ، لا أب لى ولا أم ولا اقارب الجأ إليهم . لست أدرى كيف أعيش لو انفصل زوجى عنى ، فسأموت جوعا . لو قبلت يا حبيبتى دخول البرج تدعين لى أن ارزق بطفل فسوف تستمر حياتى مع زوجى . منذ اكثر من شهرين وانا احضر إلى هذا المكان كل يوم بعد غروب الشمس فى انتظار طفلة مثلكما تقبل الدعاء لى داخل البرج لتحل عقدتى .

قالت عين الغزال :

— ولكن البنات الصغيرات مثلنا لو دخلن البرج يمتن ، ونحن لا نريد أن نموت فى هذه السن .

— وانا ايضا أريد لكما الحياة ولا يرضينى أن تموت اية واحدة منكما ، ولهذا أحضرت تميمة معى .

— تميمة ؟ ! ما معنى تميمة ؟

— معى سلحفاة صغيرة لو أخذتها اية واحدة منكما فلن يصيبها أى ضرر فى البرج وتخرج منه سالمة .

قالت « نور الشفق » .

— ومن ادراك اننى لو أخذت هذه السلحفاة ودخلت البرج فلن يصيبنى ضرر ؟

— هذه السلحفاة تمنع عنك اى اذى ؟ انا متيقنة من ذلك .

قالت « عين الغزال » :

— ولماذا لم تستطع هذه السحلفاة أن تجلب لك اطفالا ؟

— إنها تمنع الضرر ولكنها لا تجلب أطفالا .

مدت « نور الشفق » يدها للسيدة وقالت :

— اعطنى السلحفاة . سادخل البرج من أجلك وأدعو لك .

شعرت المرأة بالفرحة تهز كيانها ، فناولت السلحفاة لنور الشفق وقالت لها :

— أطال الله عمرك يا حبيبتى ومتعك بالسعادة . أنت صبية طيبة . ماذا تقولين عندما تدخلين البرج ؟

— سأدعو الله أن يرزقك بأطفال عديدين .

— لا ، لا أريد عديدا من الأطفال . يكفينى طفل واحد

— ولد أم بنت ؟

— لا يهم ، سيان عندى ان يكون ذكرا او انثى . اريد منك يا حبيبتى عندما تدخلين البرج أن تقولى : « يارب أرزق فاروزة بنت عين الحوت بمولود بعد تسعة شهور » ، هل تستطيعين قول هذا الدعاء ؟

— اجل .

— ماذا ستقولين يا حبيبتى ؟

— سأقول « يارب أرزق فاروزة بنت عين الحوت مولودا بعد تسعة شهور » .

— هذا كل ما أريد أن تقوليه . هيا يا حبيبتى ادخلى البرج . لا تخافى ، هيا أدخلى .

قالت « عين الغزال » لصديقتها :

— إياك أن تدخلى ، لو دخلت فلن تخرجى .

— أليست معى السلحفاة ؟

— لا تصدقى أن السلحفاة تمنع عنك الضرر .

قالت « نور الشفق » باصرار :

— سأدخل البرج .

قالت المرأة :

— اتركيها تدخل يا حبيبتى . لا تخافى يا نور الشفق . لا تضيعى الوقت . هيا ادخلى .

اتجهت نور الشفق نحو البرج فتشبثت بها صديقتها تمنعها من الدخول ، ولكن نور الشفق انتزعت ثوبها من صديقتها ودخلت .

كانت الرياح تعوى داخل البرج مختلطة باصوات عجيبة لا تعرف نور الشفق مصدرها . شعرت برجفة تسرى فى جسدها . ظلت قابضة بيدها اليمنى على السلحفاة ، ونادت بأعلى صوتها قائلة :

— يارب . . .

سمعت صدى صوتها يردد الجملة نفسها عدة مرات . عادت تقول :

— يارب . . .

ماذا أفعل الآن ؟ نسيت اسم المرأة . ما اسم هذه المرأة ؟ آه ، تذكرت . اسمها « بالوظة » . « بالوظة » ؟ لا ، ليس هذا اسمها . ما اسمها ؟ آه ، تذكرت ، اسمها « فاروزة » .

ثم قالت بصوت مسموع :

— يا رب أرزق « فاروزة » بنت . . .

نسيت اسم ابيها . كان من الواجب أن أحفظ الاسم جيدا قبل دخولى البرج . ابنة من يا ترى ؟ ابنة عين . . . ، ماذا ؟ ابنة عين الخنزير ؟ لا ، إنها ابنة شئ آخر . ابنة عين السمكة ؟ لا ، لست ادرى لماذا نسيت . هل من يدخل البرج ينسى ؟ مسكينة هذه المرأة ، إنها تعتقد الآن أننى أدعو لها ، ولكننى نسيت اسم ابيها . فاروزة ابنة من ؟ أخرج من البرج أسألها وأعود سريعا .

اتجهت نحو باب البرج لتخرج ، ولكن قوة عجيبة خفية وكانها مغناطيس قوى كانت تجذبها إلى الداخل وتمنعها من الخروج .

لن أستطيع الخروج من البرج ، ولكن لا بد أن أتذكر الاسم وأدعو لهذه المرأة المسكينة . خطرت لى فكرة . لا داعى لأن أتذكر اسم ابيها .

صاحت قائلة :

— يارب أجعل جميع السيدات المتزوجات فى القرية يلدن بعد تسعة شهور . يا رب أجعل كل السيدات المتزوجات فى القرية يلدن

بعد تسعة شهور .

اشتد زئير الرياح داخل البرج وسمعت صوت رعد يقصف . ثم صرخت صراخا عاليا لدرجة سمحت بسماعة خارج البرج ، وفي حركة تلقائية اندفعت « عين الغزال » نحو البرج محاولة انقاذ « نور الشفق » ، ولكن المرأة جذبتها من ذراعها بقوة ومنعتها من الدخول ، وشاهدتا « نور الشفق » تغادر المعبد مندفعة نحوهما وهي ما زالت تصرخ وتبكي وجسدها يرتجف من الرعب . هرولت صديقتها إليها وسألتها في فزع :

— ماذا أصابك ؟ لماذا تصرخين ؟

واحتضنتها المرأة وسألتها بلهفة :

— مالك ؟ مالك يا حبيبتي ؟

قالت لها صديقتها :

— ماذا حدث داخل البرج ؟

قالت « نور الشفق » بصوت متقطع مرتجف :

— رأيته . رأيت الذي يقتل البنات .

في لهفة قالت المرأة ونور الشفق معا :

— ماذا رأيت ؟

— رأيته داخل البرج . أريد العودة إلى منزلي أنا بردانة .

ألقت المرأة وشاحا على كتفي نور الشفق وقالت :

— لا تخافي يا حبيبتي ، سأوصلكما إلى منزلكما ، ماذا رأيت داخل البرج ؟

رأيت شيئا مخيفا ، كاد يقتلني .

قالت صديقتها بخوف ولهفة :

— ماذا رأيت ؟ ماذا رأيت ؟

— رأيت حيوانا ضخما ذا رأس يشبه رأس الكلب ، وجسم يشبه جسم الدب ، خرج من كهف في ركن من أركان البرج واخذ يتجه بطء وقد برزت أنيابه ، فصرخت بأعلى صوتي وقذفته بالسلحفاة ، فهرول مبتعدا عني واختفى داخل الكهف . أنا خائفة .

قالت المرأة :

— لا داعي للخوف الآن يا حبيبتي . انت معنا في أمان . وماذا قلت داخل البرج يا ترى ؟ هل دعوت لي ؟

أجل ، ولكنني نسيت اسمك !

صاحت المرأة في فزع وقد خاب أملها :

— نسيت اسمي ؟ ! وكيف دعوت لي إذا كنت نسيت اسمي ؟

— دعوت لجميع نساء القرية المتزوجات أن يلدن بعد تسعة شهور !

قالت المرأة بدهشة :

— كل نساء القرية يلدن معا في يوم واحد بعد تسعة شهور ؟ !

— أجل ، لكي تلدي معهن .

احتضنتها المرأة وغمرتها بالقبلات وقد انسابت دموعها وقالت :

— حفظك الله وأطال عمرك يا حبيبتي . ألم أقل لك إنه لن يلحقك أي ضرر ؟

٣

تحت شجرة زيتون فوق ربوة خضراء دار حديث بين امرأتين من نساء القرية :

— رأيت حلما ليلة أمس اقشعر له بدني .

— ماذا حلمت ؟

— رأيت حمامة تنطلق من المعبد المتهدم وتحوم فوق برج المعبد . وتوالى انطلاق الحمام من المكان نفسه حتى أصبح فى سماء القرية عدد لا يحصى من الحمام . وملأ الشوارع والمنازل . ثم رأيت غرابا انقض على الحمام وأخذ يبتلعه واحدة بعد الأخرى ، وكبر فى الحجم حتى أصبح وكأنه سحابة كبيرة تحوم فوق القرية مصدرا نعيقا مخيفا . ولا أدرى كيف تمكن من ابتلاع كل هذا العدد الهائل من الحمام .

— حلم عجيب . وماذا حدث بعد ذلك ؟

— انقض على أهل القرية ينهش لحمهم : كنت واقفة على قمة الجبل ورأيت الغراب طائرا نحوى فانطلقت هاربة منه وهو يطاردنى ، ولكننى تعثرت وتدحرجت من فوق الجبل حتى خشيت أن أفقد الجنين الذى فى بطنى .

— هل أنت حامل ؟

— أجل ، أنا حامل فى الشهر الثالث .

— شىء عجيب .

— وما وجه العجب فى ذلك ؟

— العجيب فى الأمر هو أننى أنا أيضا حامل فى الشهر الثالث !

— أنت أيضا ؟

— أجل ، والأعجب من ذلك هو أن فاروزة بنت عين الحوت العاقر التى مضى على زواجها أكثر من عشر سنوات هى أيضا حامل لأول مرة وفى الشهر الثالث .

— غير معقول . أمتيقنة أنت من ذلك ؟

— كل اليقين .

كان مدير مستشفى القرية فى غرفته يتحدث مع احدى الممرضات . قالت الممرضة :

٤

— نجحت عملية إخراج الرصاصة من صدر المصاب . ولكنه متحاج لكمية كبيرة من الدم . ولقد استنفد الجرحى كل كميات الدم التى بالمستشفى ولا ندرى ماذا نصنع ؟

— من أى فصيلة دمه ؟

— فصيلة « أ » .

— ألا يوجد بين الممرضات والأطباء من يتبرع بدمه لانقاذ حياة هذا الرجل . ريثما يصل الدم الذى طلبنا إرساله للمستشفى ؟

— سنبحث عن دم من فصيلة دمه .

— أسرعى ولا تضيعى الوقت . ألا يهدأ القتال بين أهل هذه القرية المكنوبة ؟

وبينما كانت الممرضة تستعد لمغادرة غرفة مدير المستشفى اقتحمت الغرفة « سحر العيون » رئيسة الممرضات وقالت لمدير المستشفى :

— منذ الصباح الباكر يا دكتور وحالات الولادة تتوالى بلا انقطاع . لست أدرى ماذا نصنع . لا يوجد بالمستشفى من الأطباء والممرضات ما يكفى لتوليد هذا العدد الهائل .

— شىء عجيب . ماذا حدث لأهل هذه القرية ؟ لا بد من إعلان حالة الطوارىء وطلب نجدة . سأتصل بالجهات المسئولة وأطلب

إرسال كل ما يمكن إرساله من الأطباء والممرضات من جميع انحاء الدولة .

ظلت حالات الولادة تتوالى ، وهرع إلى القرية عدد ضخم من الصحفيين لتسجيل هذه الظاهرة العجيبة التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ القرية أو تاريخ العالم . ومما زاد من عناء الأطباء والممرضات وجود عدد كبير من التوائم بين المواليد .

● ● ● ●

كان المدير ما زال ساهرا بالمستشفى غير شاعر برغبة فى النوم بعد الاشراف على اتمام جميع عمليات الولادة ، ناظرا من خلال النافذة يتامل الظلام وهو يذوب ويتلاشى فى ضوء الفجر الساحر منصتا إلى صوت الحياة المنطلق من حناجر الطيور التى بدات تصدح فى وكناتها . انتزعته من تاملاته ، سحر العيون ، رئيسة الممرضات عندما اقتحمت غرفته شاحبة الوجه ترتجف من الرعب صائحة :

— الأطفال يا دكتور .

انتفض الطبيب واقفا وقال بلهفة :

— مالهم ؟

ظلت ناظرة إلى الطبيب والفزع يطل من عينيها لا تدرى ماذا تقول . صاح الطبيب قائلا :

— تكلمى . ماذا حدث للأطفال ؟ هل ماتوا ؟

— ليتهم ماتوا يا دكتور ، حدث اسوا من ذلك . هيا معى لترى الكارثة .

ذهبا معا إلى عنابر الأطفال . قال الطبيب :

— مالهم الأطفال ؟ هاهم بخير .

— شىء مريع . لست ادرى من الذى فعل ذلك .

— ماذا حدث ؟

— ألم تلاحظ شيئا غريبا يا دكتور ؟

— لم تعد لى قدرة على ملاحظة أى شيء . اكاد أموت إعياء .

قالت رئيسة الممرضات بعد لحظة تردد :

— بعد أن نام جميع الممرضات دخلت العنابر لأطمئن على الأطفال . فلاحظت أن الأشرطة الملفوفة على أيدى الأطفال التى تثبت شخصياتهم اختفت . ضاعت شخصية الأطفال فأصبحنا لا ندرى من ابن من ؟

— ومن ذا الذى يجرؤ على سرقة هذه العلامات من أيدى جميع الأطفال ، وما الهدف من ذلك ؟

— لست أدرى ماذا نفعل عندما يحضر الآباء لرؤية أطفالهم .

— وأين كانت الممرضات عندما حدث ذلك ؟

— كن نائمات من فرط الارهاق . أنا نفسى غلبنى النوم ، فنمت فترة من الزمن وأنا جالسة على الكرسى . أنت تعلم يا دكتور أننا جميعا لم يغمض لنا جفن طوال الليل .

انفجرت تبكى وقالت :

— أنا المسئولة عن هذه الجريمة البشعة ، كان من الواجب أن اقاوم النوم بأية وسيلة .

— هل لاحظ أحد غيرك هذه المصيبة ؟

— لا يا دكتور ، جميع الممرضات ما زلن نائمات ولم يعرف هذه المأساة سواى .

اخذ الطبيب يعبث بلحيته ثم قال :

— اسمعي ، احضري لي الدفتر المقيدة به أسماء آباء جميع المواليد ، وسأكتب الأسماء على أشرطة جديدة وألفها على أيديهم كيفما اتفق !

قالت رئيسة الممرضات بدهشة :

— ولكن بهذه الطريقة سينسب الأطفال إلى آباء غير آبائهم .

قال الطبيب وقد قطب حاجبيه وبدا عصبيا :

— لا يهم . المهم أن يكون حول يد كل طفل اسم أحد الآباء ، إذ أنهم لو علموا أن « أبناءهم فقدوا شخصياتهم فلن يتورعوا عن قتل جميع أطباء وممرضات المستشفى » . أنت تعلمين مبلغ شراسة هؤلاء الناس . سأدخل العنابر بمفردي وأغلق الأبواب ، وعليك أن تتأكدي من أن أحدا لا يعرف ما يحدث .

قالت « سحر العيون » والدموع تنهمر من عينيها :

— أمرك يا دكتور .

— لا بد أم يبقى هذا سرا بيننا لا يعرفه أي مخلوق آخر . هيا احضري الدفتر والأشرطة والأقلام .

٦

ذات يوم . بعد نحو عشر سنوات ، كان أطباء المستشفى قد انتهوا من إسعاف وتضميد جراح عدد كبير من أهل القرية الذين أصيبوا في معركة ضارية نشبت بينهم لسبب تافة كالعادة ، قتل وأصيب فيها ما لا يقل عن ثلاثين رجلا وامرأة وطفلا . إذ لم يكن يمر يوم دون ورود ضحايا للمستشفى .

بعد انتهاء إسعاف المصابين جلس الطبيب في غرفته مسترخيا ناظرا من خلال نافذتها العريضة التي تطل على القرية من مكان مرتفع بالقرب من سفح الجبل . كانت شوارع القرية تموج بأسراب من الأطفال في نحو العاشرة من عمرهم ولدوا جميعا

في يوم واحد . بعد لحظات دق جرس التليفون ، فتناول الطبيب السماعة وسمع على الطرف الآخر من الخط صوتا يقول :

— ابني مريض يا دكتور ، أرجو أن تحضر إلى منزلنا لفحصه .

— من المتكلم ؟

— أنا « الغضبان » ، بيتي في شارع البلوط رقم عشرة .

قال الطبيب الذي كان يشعر بإرهاق شديد :

— ألا يمكنك إحضاره إلى المستشفى ؟

— لا يا دكتور ، الولد حرارته مرتفعة والعرق الغزير يسيل من جسده وحالته لا تسمح بخروجه من البيت .

— سأرسل إليك أحد أطباء المستشفى .

— لا يا دكتور . أرجوك الحضور بنفسك فأنت الوحيد الذي أثق فيه وسأدفع كل ما تطلب من أتعاب . الطبيب الذي أرسلته إلينا في المرة السابقة لم يحسن معاملة ابني المريض ولم ينجح في علاجه .

أسرع مدير المستشفى بالذهاب إلى منزل الغضبان .

— منذ متى لاحظت ارتفاع حرارة ابنك ؟

— صباح اليوم .

قاس الطبيب حرارة المريض فوجدها ٣٩ درجة مئوية وكانت دقات قلبه سريعة . وبينما كان الطبيب منهمكا في فحص الحلق وقد فتح الطفل فمه إلى أقصى حد مستطاع : انبعثت من حديقة المنزل ضجة أطفال . فصاح « الغضبان » قائلا :

— العيال نهبوا الحديقة . سأقتلهم . سأضربه بالرصاص .

اختطف بندقيته من أحد أركان الغرفة وفتح النافذة المطلة على الحديقة . أمسك الطبيب يد الغضبان ضاغطا عليها بكل قوته

وقال فى لهفة وفزع :

— ماذا ستفعل بهذه البندقية يا مجنون ؟

— العيال سرقوا التفاح يا دكتور . سأضربهم بالرصاص .

— الا تنتظر حتى أنتهى من فحص ابنك ؟

— هأنذا منتظر . ضع هذه البندقية فى مكانها

ظل « الغضبان » ناظرا إلى الطبيب فترة مترددا ، ثم سار ببطء نحو ركن الغرفة ووضع البندقية فى المكان الذى كانت فيه وبدا قلقا وكأنه يتعجل خروج الطبيب من المنزل . واصل الطبيب فحص حلق الطفل مستعينا ببطارية ذات ضوء قوى .

— هل انتهيت من الفحص يا دكتور ؟

— أجل ، ابنك مصاب بالتهاب فى اللوزتين واحتقان فى الحلق وسأكتب له العلاج الذى يشفيه من مرضه .

كتب الطبيب العلاج وناول الورقة إلى الغضبان قائلا :

— لابد أن تبدأ فى تعاطى هذا الدواء بأسرع ما يمكن .

كانت ضجة الاطفال ما تزال منبعثة من الحديقة . لم يستطع « الغضبان » كبح جماح غضبه حتى يغادر الطبيب المنزل . إذ بينما كان الطبيب مشغولا بوضع أدواته فى حقيبته ، اسرع « الغضبان » واختطف بندقيته وهم بتصويبها نحو الأطفال ، فانقض عليه الطبيب وانتزع منه البندقية ، نظر الطبيب من النافذة فرأى أطفالا فى نحو العاشرة . ثم قال :

— أعتقد أن ابنك المريض هذا ولد مع هؤلاء الأطفال فى اليوم نفسه . منذ عشر سنوات .

— أجل ، القرية امتلأت بهؤلاء الملاعين الذين ولدوا فى هذا اليوم المشئوم واصبحوا كأسراب الجراد يعيثون فسادا فى حديقة

المنزل ويحرموننا من جنى ثمارها .

— هل يسمح ضميرك ، إذا كانت لديك بقية من ضمير ، أن تقتل طفلا فى العاشرة من عمره فى مثل سن ابنك هذا من اجل تفاحة ؟

صاح « الغضبان » قائلا :

— المسألة اصبحت لا تطاق يا دكتور ، أليس من حقنا أن نأكل ثمار أشجار حديقتنا ؟

— ليس من حقك تنفيذ حكم الاعدام فى طفل صغير من أجل تفاحة .

— إنهم يستحقون الذبح .

— عندما مرض ابنك هذا الذى فى مثل سنهم اسرعت باستدعائى لعلاجه ، الا يتسع قلبك لشىء من الرحمة لأطفال الآخرين ؟

— جميعهم يا دكتور لديهم حدائق فى منازلهم . لماذا يتركون فاكهتهم ويسطون على فاكهتى ؟

— هل انت متيقن من ذلك ؟ ألم تلاحظ الأسمال البالية التى يرتدونها ؟

فى هذه اللحظة ، ارتفع صوت طفل يقول :

— توجد تفاحة زائدة ، من يأخذها ؟

انتفض « الغضبان » ، وانتزع البندقية من يد الطبيب وهم بتصويبها من جديد نحو الأطفال . فاسرع الطبيب بالوقوف أمام البندقية ثم انتزعها من يد الغضبان وصاح قائلا :

— اجلس هنا .

جلس الغضبان على حافة سرير ابنه المريض وجلس الطبيب على كرسى بجواره ووقفت زوجة « الغضبان » بالقرب منهما . قال الطبيب :

— ألم يخطر على بالك أن أحد هؤلاء الأطفال الذين هممت باطلاق الرصاص عليهم قد يكون ابنك ؟

ضحك الغضبان ضحكة زائفة خشنة ثم قال :

— ابنى ؟ ! ابنى راقد أمامك يا دكتور وأخوه الأكبر يعمل فى الحقل ولا أولاد لى سواهما .

ثبت الطبيب بصره نحو وجه « الغضبان » وقال بعد لحظة تردد :

— ابنك المريض هذا الذى أراك فى قلق من أجله وفى لهفة لسرعة شفائه ، قد لا يكون ابنك !

نظر « الغضبان » إلى الطبيب نظرة بلهاء ثم نظر إلى زوجته وقال :

— هذا الطفل قد لا يكون ابنى ؟ ! هل تعرف معنى ما تقول يا دكتور ؟

بدت الزوجة محمرة الأنف منتفخة الخدين جاحظة العينين متحفزة للهجوم وكأنها قنبلة على وشك الانفجار وصاحت قائلة :

— ماذا تقصد بذلك أيها الرجل ؟

— أنا لا أقصد المعنى الذى فهمتماه .

قالت الزوجة ووجهها ما زال محتقنا من الغضب :

— إذن ماذا تقصد ؟

أطرق الطبيب إلى الأرض واعتمل فى أعماق نفسه صراع عنيف .

لست أدرى ، هل أطلعهما على الحقيقة المرّة ؟ هل أقول لهما إن شخصية الأطفال فى تلك الليلة الرهيبة ضاعت واختلطت وإن الأسماء وضعت حول أيدى الأطفال كيفما اتفق بطريقة عشوائية . وإن كل أب قد يكون تحت سقف منزله الآن طفل أو طفلان توءمان ليسا من صلبه ؟

قام الطبيب وخرج من الغرفة وطلب من « الغضبان » وزوجته أن يتبعاه حتى ابتعدوا جميعا عن الغرفة التى يرقد فيها الطفل المريض ، وقص الطبيب عليهما حقيقة ما حدث وهما منصتان .

صاح « الغضبان » وقد نفرت عروق رقبته قائلا :

— وأين كان المسئولون عن الأطفال ؟ هل تتركون الأطفال بلا رعاية أو رقابة وقد تركناهم وديعة غالية بين أيديكم ؟

قال الطبيب بهدوء :

— جميع الممرضات كن مرهقات إرهاقا شديدا ، غلبهن النوم فنمن ، وفى أثناء نومهن تسلل شخص مجهول وسرق الأشرطة الملفوفة حول أيدى الأطفال فضاعت شخصياتهم .

— ولكننا وجدنا الأشرطة ملفوفة على أيدى الأطفال عندما رأيناهم .

— كتبنا الأسماء على أشرطة جديدة ووضعناها حول أيديهم عشوائيا حتى لا تبدو بلا أشرطة عندما تراهم أمهاتهم وعندما يحضر الآباء لرؤيتهم .

احتقنت عينا الزوجة بالدماء كما يحدث لعينى السحلية المكسيكية عندما تغضب أو تستثار وصاحت قائلة :

— أنا لا أصدق حرفا واحدا مما قلته . أنت كذاب .

قال الطبيب وهو لا يزال محتفظا بهدوئه !

— ليس من المعقول أن أكذب وأعرض سمعة المستشفى وسمعتى ومركزى للخطر . لقد أطلعتكم على حقيقة ما حدث فى تلك الليلة الرهيبة ، الحقيقة المرّة . لكى أريح ضميرى .

صاح الغضبان قائلا :

— ولكن هذا شىء فظيع . إذا كان الأمر كذلك فإن هذا الطفل المريض قد لا يكون ابنى .

— ولد فى المستشفى فى هذه الليلة نحو الف طفل ، واحتمال كونه ابنك هو واحد فى الألف ، قد يكون ابنك وقد لا يكون ابنك .

قال « الغضبان » وعروق رقبته القصيرة الغليظة ما زالت نافرة :

— ولماذا لم تخبرنا بالحقيقة طوال هذه المدة ؟ لماذا التزمت الصمت عشر سنوات ايها الشيطان الأخرس ؟ لماذا خدعت جميع أهل القرية ؟

— كان فى نيتى كشف النقاب عن هذا السر الخطير الذى ظل يعربد فى صدرى ويعذبنى طوال هذه السنين ، ولكننى كنت انتظر اللحظة المناسبة لأن أبوح به ، ولقد حدث الآن ما اضطرنى إلى إفشائه .

زمجر « الغضبان » قائلا :

— انتم مهملون مجرمون لا تؤتمنون على أولاد الناس . كيف تتركون اللصوص يعيثون فسادا فى مستشفى نضع فيه أبناءنا ؟ كان من الواجب المحافظة عليهم .

صاح الطبيب منفعلا :

— ولماذا لا تحافظ أنت على أرواح أبناء الآخرين ؟ لقد هممت باطلاق الرصاص على أطفال صغار فى سن ابنك لسبب تافه . هل تسلب حياة طفل من أجل تفاحة ، أو حتى من أجل حديقة باكملها ؟ أنت مجرم .

— هل جئت لتشتمنى فى بيتى ؟

— بل جئت لأعالج ابنك ، ولم أحضر من تلقاء نفسى ، انت الذى استدعيتنى .

— ابنى ؟ ! ومن يدرينى الآن إذا كان ابنى أو ابن شخص

آخر ؟ لقد ضاعت الحقيقة . لست أدرى ، هل أحتفظ بهذا الطفل ام أطرده من بيتى ؟

— قد يكون ابنك ، من يدرى ؟ هناك احتمال واحد فى الألف كما قلت لك ، وحتى لو لم يكن ابنك فمن واجبك الآن أن ترعاه وتعطف عليه فهو لا ذنب له فيما حدث ولا يعرف أبا أو أما سواكما ، هذا علاوة على أن ابنك الحقيقى فى هذه الحالة ، لو لم يكن هذا الطفل ابنك ، فسيكون فى رعاية شخص غيرك ، فلا بد أن تعطف عليه كما يعطف انسان آخر على ابنك .

قال « الغضبان » وقد بلغ ذروة الغضب :

— ولماذا فعلتم بالمرضات المهملات اللاتى نمن وتركن اللصوص تعبث بأبناء الناس ؟

— لم نفعل شيئا . المرضات بذلن فى ذلك اليوم مجهودا عنيفا فوق طاقة البشر ، وظللن حتى مطلع الفجر دون أن يغمض لهن جفن ، ولهن العذر لو غلبهن النوم فنمن . إن نومهن غصبا عنهن دليل على مدى الارهاق الذى كن يعانين منه ولا جدوى من عقابهن .

انبعث من جديد فى هذه اللحظة صوت الأطفال وقد تسلقوا إحدى أشجار التفاح بالحديقة ، ولكن « الغضبان » ظل واقفا مطرقا للأرض . قال له الطبيب ساخرا :

— هيا اضربهم بالرصاص .

— اتمنى أن اضربك انت بالرصاص . انت الذى تستحق القتل . سأذيع هذا الخبر المفزع فى جميع أنحاء القرية ، وانا واثق من أن جميع الأهالى سينتقمون منك ويقتلونك شر قتلة انت وجميع من معك فى المستشفى .

ارتفع صوت احد الأطفال فى الحديقة قائلا :

— هيه ، اخذنا التفاح . هيه ، اخذنا التفاح .

لم يتحرك « الغضبان » من مكانه وكانه لم يسمع شيئا . قال له الطبيب :

— الا تسمع ؟ يقول الطفل إنهم اخذوا التفاح ، لماذا لا تضربهم بالرصاص ؟

اتجه « الغضبان » نحو باب منزله ، فساله الطبيب :

— إلى اين انت ذاهب ؟

قال « الغضبان » وجسده يرتجف :

— ساقطف التفاح واعطيه لهم ، فقد يكون ابنى بينهم ، وساشترى لهم ملابس جديدة . احتضنته زوجته ومالت براسها على كتفه وانخرطت فى بكاء عنيف .

● ● ● ●

٧

سرى الخبر فى انحاء القرية كما تسرى النار فى فتيل القنبلة ، وسارت المظاهرات فى الشوارع منذرة بالويل والانتقام ، وتجمعوا امام باب المستشفى مواصلين هتافاتهم العدائية ومهددين بإحراق المستشفى . ثم انهالوا على المستشفى يقذفونه بالحجارة فكسروا زجاج بعض نوافذه . اطل مدير المستشفى من إحدى النوافذ وصاح باعلى صوته قائلا :

— انتم الخاسرون لو دمرتم المسشفى . لن تجدوا من يعالجكم

لو مرضتم ومن يسعفكم لو جرحتم .

— توقف قذف الحجارة ، وبدأت الهتافات تقل ويخفت صوتها تدريجا حتى تلاشت ، وراهم الطبيب من النافذة يتحاورون فيما بينهم ، وانقسموا إلى مجموعات واستمر الحوار بين أفراد كل مجموعة ، ثم اخذوا يغادرون المكان فرادى وجماعات .

هدأت العاصفة وتقبلوا الأمر الواقع ، ولكن تغيرات جوهرية طرأت على سلوك أهل القرية . توقفت المعارك التى كانت تنشب بينهم وساد الهدوء لأول مرة فى تاريخ هذه القرية وحل السلام والوئام محل القسوة والعنف وعمرت قلوبهم بالمودة والرحمة اللتين لم يكن لهم عهد بهما من قبل . أصبح كلما مرض طفل من الأطفال الذين ولدوا معا يهرع جميع أهل القرية للاطمئنان على صحته وتوفير سبل علاجه والدعاء له بالشفاء العاجل فقد يكون ابن أى واحد منهم . وإذا علموا أن أحدا من أهل القرية فى ضيق أسرعوا بإزالة أسباب ضيقه فقد يكون هو الذى يرعى ابنهم . لم يعد المستشفى يستقبل كل يوم ضحايا المعارك التى لم تكن تهدأ . حقنت الدماء وأصبحت البنادق والمسدسات لا تؤدى أية وظيفة ، وشعرت كل عائلة بأن شخصا عزيزا عليها قد يكون فى بيت غير بيتهم . فأصبحت جميع منازل القرية وكأنها منزل واحد كبير يضم عائلة واحدة متماسكة متعاطفة .

ولكن طوال هذه المدة ظل ضمير « سحر العيون » رئيسة الممرضات يؤنبها لاعتقادها أن غفوتها فى تلك الليلة الرهيبة كانت السبب فى مأساة ضياع شخصية الأطفال . كان الطبيب يفاجئها أحيانا وهى تبكى فى وحدتها ، فكان يرثى لحالها ويتألم لعذابها .

— ثقى أنك غير مسئولة عما حدث .

— لا يا دكتور . اعتقد بيني وبين نفسي أنني مسئولة عن ذلك .

— إن ما حدث لا ذنب لك فيه .

— بل أنا المسئولة . وليس في استطاعة احد ان يمحو من ذهني هذا الاعتقاد ويزيل من أعماق ضميري شعوري بالذنب .

● ● ● ●

٨

في ظل خميلة تطل على البحيرة جلس شاب بجواره فتاة جميلة . قال الشاب :

— لو بحثت في جميع أنحاء الدنيا لما عثرت على أجمل منك .

قالت الفتاة وقلبها يخفق بالحب والفرحة :

— وانا لو فتشت في كل مكان لما وجدت انبل منك ، متى نتزوج ؟

— عندما نجمع البرتقال .

— ومتى ستجمعون البرتقال ؟

— بعد شهرين .

— سيمران وكأنهما ألف عام .

— القمر الليلة بدر والسماء صافية .

— نركب زورقا في ضوء القمر .

— هيا .

ركبا الزورق وكأنهما روحان هائمتان فوق صفحة مياه البحيرة . تملأ السعادة قلبيهما ، ويخيل إليهما أن الدنيا لا تضم سواهما .

أخذ يجدف بيديه القويتين . قالت :

— ما أجمل القمر ؟

— أنت أجمل منه .

— ما أجمل عبير أزهار البرتقال .

— أنت أجمل زهرة .

ضحكت وقالت :

— ومن أنت ؟

— أنا الفراشة .

— الفراشة تزور أزهارا عديدة .

— لا أرى من الأزهار سواك .

— لو بقينا في الزورق حتى الصباح فما شعرت بالملل .

— قد نفاجأ بطلوع الشمس دون أن أشعر بمرور الزمن .

— انا لا أشعر بمرور الزمن عندما نكون معا .

● ● ● ●

٩

قال الشاب لوالدته :

— لن اتزوج سواها .

— لا تنس أنها ولدت معك في اليوم نفسه ، يوم أن اختلط الأطفال وفقدوا شخصياتهم .

— وهل في هذا ما يمنع زواجي منها ؟

أطرقت الأم في حزن ثم قالت :

— هذه الفتاة قد تكون أختك !

قال الشاب فى فزع :

— أختى ؟ ! ما تفسير ذلك ؟

— أنت تعلم أننى ولدت فى ذلك اليوم توأمين ، أنثى وذكرا ، وإذا فرضنا أنك أنت ابنى ، أليس من المحتمل أن تكون هذه الفتاة أختك ونسبت إلى أب آخر عندما ضاعت شخصية الأطفال !

— هذا غير معقول ، إنه احتمال ضعيف .

— ولكنه احتمال ، وما دام الاحتمال قائما فلا ينبغى أن تتزوج من فتاة ولدت معك فى ذلك اليوم . البنات فى القرية كثيرات . اختر منهن أية فتاة تكون قد ولدت فى يوم آخر .

— لن أتزوج غيرها ، فهى الوحيدة التى أحببتها . ولقد وعدتها بعقد قراننا عندما نجمع البرتقال .

— لن أسمح لك بالزواج منها .

صاح الشاب منفعلا :

— هل يرضيك أن تقتل نفسها ؟

قالت الأم فى دهشة :

— تقتل نفسها ؟ ! لماذا ؟

— لقد صممت على إنهاء حياتها إذا لم يتم الزواج بيننا ، وسأحملك مسئولية موتها وهى فى ربيع عمرها . ستكونين السبب فى هذه المأساة ولن يغفر لك أحد هذا الذنب .

— ولو تزوجتها فلن يغفر الله لك . ولا أحد فى القرية يسمح بزواج فتى وفتاة ولدا معا فى ذلك اليوم ، ولن تجدا من يقبل عقد قرانكما

١٠

بعد يومين ، كان مدير المستشفى واقفا يتحدث مع سحر العيون ، رئيسة الممرضات شعر بألم حاد فى صدره وسرى الألم فى ذراعه اليسرى ، فأسرع إلى غرفته وقد بدا عليه الارهاق الشديد . هرولت رئيسة الممرضات ودخلت معه الغرفة وسألته فى لهفة :

— مالك يا دكتور ؟ هل تشعر بتعب ؟

أسرع الطبيب باعداد حقنة ملأها بسائل من قارورة صغيرة وناول الحقنة لسحر العيون قائلا :

— أشعر باعراض ذبحة صدرية . أسرعى باعطائى هذه الحقنة فى الوريد .

غرست رئيسة الممرضات الحقنة فى ذراعه وافرغت ما فيها فى وريده وظلت مثبتة بصرها نحو الطبيب وقد شحب لونها . قال الطبيب :

— أشعر الآن بشىء من الراحة .

أسرعت ، سحر العيون ، باحضار جهاز قياس ضغط الدم ، وفزعت عندما اتضح لها أن ضغط دمه ضعيف لدرجة خطيرة . وقالت :

— ماذا حدث يا دكتور ؟ كنت فى كامل صحتك منذ لحظات .

— لست أدرى . شعرت بتعب مفاجىء .

— هل من الممكن أن أفعل شيئا ؟

معا

— لا . لا شيء يمكن عمله سوى هذه الحقنة . هذه الأزمة قد تمر بسلام وقد تنهى حياتي .

— ستمر الأزمة بسلام يا دكتور

— من يدري ؟ قد أموت .

— لا تذكر الموت . ستمر الأزمة بسلام وسوف تعيش .

قال الطبيب وقد بدأ العرق ينضح من جبينه :

— اسمعي يا « سحر العيون » ... في صدري سر أخفيه ولم أطلع عليه أحدا طوال هذه السنين :

قالت رئيسة الممرضات بدهشة :

— سر ؟ ! ما هو هذا السر ؟

قال الطبيب وقد بدأ يلهث :

— سر خطير . هل تعلمين من الذي سرق العلامات التي كانت ملفوفة على أيدي الأطفال في تلك الليلة الرهيبة ؟

— من الذي سرقها ؟

وأنا . اتسعت عينا رئيسة الممرضات من الدهشة وقالت :

— مستحيل

— أجل . أنا الذي سرقت هذه العلامات عندما تأكدت من أن جميع الممرضات والأطباء نيام . ورأيتك أنت أيضا نائمة على الكرسي بغرفتك .

— ولماذا فعلت ذلك ؟ لماذا ؟

— أردت أن ينتشر في القرية خبر اختلاط الأطفال وضياع شخصياتهم . فظللت صامتا نحو عشر سنوات حتى حانت اللحظة التي اضطرتني لافشاء السر . فذكرته للغضبان عندما استدعاني لعلاج ابنه . ورأيته يهم بقتل الأطفال الذين أخذوا التفاح من حديقته

أطرق الطبيب إلى الأرض لحظة ثم قال وهو ما زال يتنفس بصعوبة :

— وهناك سر آخر سأطلعك عليه . سر سيريح ضميرك الذي يعذبك . إنني أشعر بعذابك طوال هذه السنين وشعورك العميق بالذنب ، ولكن سيرتاح ضميرك عندما أطلعك على هذا السر .

— سر آخر ؟ ! ما هو يا دكتور ؟

— هذا السر أرجو أن تحرصي على عدم إفشائه طوال حياتك . إذ إنني لو لم أدرك مدى عذابك لاحتفظت به في صدري ليدفن معي في قبري .

قالت رئيس الممرضات بلهفة .

— ما هو يا دكتور ؟

— هل تذكرين عندما طلبت منك أن تبقى خارج عنابر الأطفال للتأكد من عدم وجود من يراني في تلك اللحظة ودخلت العنابر بمفردي وقلت لك إنني وضعت الأسماء حول أيدي الأطفال عشوائيا ؟

— أجل . أذكر ذلك جيدا ولن أنساه .

— كان المفروض أن أضع العلامات كيفما اتفق . ولكنني كنت قد رتبت الأشرطة بطريقة معينة . وعندما أعدت وضعها حول أيدي الأطفال وضعتها كما كانت تماما .

قالت رئيسة الممرضات وكأنها في حلم :

— هل يعني هذا أن الأطفال لم يختلطوا ولم يفقدوا شخصياتهم ؟

— أجل . لم يختلطوا ولم يفقدوا شخصياتهم .

— ولماذا فعلت ذلك ما دمت أعدت كل شيء إلى ما كان عليه

— كنت أقصد أن يتسرب الخبر إلى أهل القرية ، خبر اختلاط الأطفال .

— ولماذا يا دكتور ؟ !

— لكى أقتلع جذور الكراهية والعنف من قلوبهم ويحل محلهما الحب والتعاطف . ألم تلاحظى التغير الذى طرأ على القرية ؟ كان لا بد من كذبة كبيرة لتلين القلوب التى قدت من حجر . وكل ما أرجوه منك يا ، سحر العيون ، أن تبقى هذا السر حبيسا فى صدرك ليظل الوفاق سائدا بينهم . لقد بحت اليك الآن بذلك السر لما لاحظته من عذاب الضمير الذى ترزحين تحت وطأته طوال هذه السنين . فلتستريحى الآن من هذا العذاب وتهدأ نفسك . ورجائى الوحيد أن تتركيهم على اعتقادهم ليعيشوا فى سلام .

كان ينطق الكلمات الأخيرة بصعوبة ثم شهق ومال برأسه ، وبدأ وكأنه فى إغفاءة . فزعت رئيسة الممرضات عندما وجدت نبضه توقف ، فأجهشت بالبكاء وغمغمت قائلة :

— رحمة الله عليه ، كان إنسانا عظيما طيبا .

• • • •

١١

بعد ستة أيام من وفاة مدير المستشفى كان العاشقات جالسين فى ظل إحدى أشجار البرتقال الذى نضج وحان موعد جمعه . قال الشاب :

— أبى وأمى لا يوافقان على زوجنا خوفا من أن تكونى أختى .

قالت الفتاة وفى صوتها رنة يأس :

— كل من فى القرية يعترضون على زواجنا . الجميع مصممون على تحطيم قلبينا . ولكننى لن أحتمل الحياة وأنا بعيدة عنك . لن أتزوج غيرك .

— لن يوافق أحد على عقد قراننا .

أجهشت بالبكاء وقالت :

— إذا كان الأمر كذلك فلم يعد أمامى سوى الموت .

انتفضت واقفة وأسرعت نحو البحيرة . جرى الشاب خلفها ، ولكن قبل أن يتمكن من اللحاق بها ألقت بنفسها فى مياه البحيرة ، فألقى الشاب بنفسه فى الماء وظل يسبح خلفها ، ولكنها تركت نفسها تهوى فى قاع البحيرة . غاص فى الماء وحملها نحو الشاطىء وهى بين الحياة والموت .

• • • •

١٢

كان كل شيء هادئا فى المستشفى عندما وصلت إليه سيارة إسعاف تحمل الفتاة فى حالة إغماء . بذل الأطباء أقصى جهدهم لاسعافها حتى استردت وعيها . كانت الفتاة الجميلة شاحبة الوجه ذات عينين زرقاوين وانف دقيق . فتحت عينيها .. ورات « سحر العيون » رئيسة الممرضات واقفة امامها ترنو إليها فى حزن . قالت « سحر العيون » :

— لماذا هانت عليك نفسك ؟ لماذا فعلت ذلك ؟

قالت الفتاة بصوت ضعيف :

— ولماذا لم تتركونى اموت ؟ انا لا أريد ان اعيش ، وسوف اخرج من المستشفى لألقى بنفسى فى البحيرة مرة اخرى .

جلست رئيسة الممرضات بجوارها وامسكت بيدها وقالت :

— ولماذا كل هذا ؟

— إننى احبه ولن اتزوج غيره ، ولكنهم لا يوافقون على زواجنا .

— ولماذا يعترضون على زواجكما ؟

— لأننا ولدنا مع فى ذلك اليوم الرهيب الذى يتحدثون عنه حيث اختلط الأطفال وفقدوا شخصياتهم . يقولون إننى قد اكون اخته لأن أمى وضعت فى ذلك اليوم توأمين ، ولدا وبنتا .

أطرقت الممرضة للأرض وعادت إلى ذاكرتها الأحداث .

— منذ الصباح الباكر وحالات الولادة تتوالى للمستشفى .

— الأشرطة الملفوفة على أيدى الأطفال اختفت .

— أنا المسئولة عن هذه الجريمة .

— سر آخر ؟ ما هو يا دكتور ؟

— سيرتاح ضميرك عندما أطلعك عليه .

— كان المفروض أن أضع العلامات بشكل عشوائى .

— هل يعنى هذا أن الأطفال لم يختلطوا ولم تضع شخصياتهم ؟

— لكى أقتلع جذور الكراهية من قلوبهم وتلين القلوب المتحجرة .

— كان لا بد من كذبة كبيرة .

— كل ما أرجوه منك يا « سحر العيون » أن يظل هذا السر حبيسا فى صدرك ليظل التعاطف سائدا بينهم .

هل أخبرها بحقيقة ما حدث وأن الأطفال لم يفقدوا شخصياتهم فاسعد بذلك قلبين تفتحا للحب والحياة ؟ لا ، لن أخبرها مهما كانت الظروف . لا بد أن أحترم وصية الطبيب . ولكن هذه الفتاة مسكينة ، لماذا أتركها تتعذب وتنهى حياتها وهى فى هذه السن المبكرة ؟ إنها تريد أن تسعد بحياتها . لماذا أحجب عنها السر ؟ سأخبرها بالحقيقة . لكن الطبيب طلب منى وهو فى لحظاته الأخيرة ألا أبوح بالسر . الطبيب لم يكن يعلم أن كتمان هذا السر سيكون سببا فى موت فتاة بلا ذنب ولا مبرر . من غير المعقول أن أترك فتاة تتعذب ويتحطم قلبها وتدمر حياتها بسبب كذبة . سأخبرها .. أجل . سأطلعها على الحقيقة .

— أن شخصية الأطفال فى ذلك اليوم لم تختلط كما أشاع الطبيب .

سرت في جسد الفتاة الراقدة قوة لم تشعر بها من قبل فانتفضت جالسة في سريرها وقالت وقد اتسعت عيناها دهشة :

— ماذا تقولين ؟

— اعترف لى الطبيب قبيل وفاته أنه تعمد إشاعة نبأ اختلاط الأطفال لكى تسود المحبة بين جميع أهل القرية عندما يشعرون بأن أبناءهم قد يكونون في رعاية غيرهم ، ولقد تحقق ما توقعه وساد الوئام والسلام بين أهل القرية ، ولكنها لم تكن سوى كذبة ، كذبة كبيرة .

— هل ما تقولينه حقيقة ؟

— أجل .

— أمستعدة أن تقسمى على ذلك ؟

— أقسم أن كل كلمة ذكرتها لك حقيقة .

— أمستعدة أنت أن تعلنى هذا لجميع أهل القرية ؟

— أجل ، أنا على أتم استعداد لذلك .

قالت الفتاة وقد هزتها الفرحة وبدأ الدم يتوارد إلى وجهها الذى كان شاحبا :

— هل يعنى هذا أننا لسنا أخا وأختا ؟

— لستما أخا وأختا .

اختضنت الفتاة « سحر العيون » وغمرتها بقبلاتها ثم قالت وكأنها استيقظت من كابوس مرعب :

— سنتزوج إذن ، لن يعترض أحد على زواجنا .

● ● ● ●

١٣

سرى النبأ في القرية :

— الأبناء لم يختلطوا .

— أبناؤنا هم أبناؤنا وليسوا أبناء الآخرين .

— الطبيب كذب علينا كذبة كبرى صدقناها طوال هذه السنين .

وتم زواج الشاب والفتاة ، وبعد ثلاثة أيام سمع « الغضبان » صوت أطفال في حديقته . اختطف بندقيته وأسرع بفتح النافذة فوجد طفلا في نحو السابعة فوق شجرة التفاح ، وثلاثة أطفال في مثل سنه خلف سور الحديقة . صاح « الغضبان » قائلا :

— لن تفلتوا من يدى يا أوغاد .

أطلق رصاصتين ، أصابت إحداهما الطفل الذى فوق الشجرة في صدره ، وأصابت الأخرى واحدا من الأطفال الثلاثة في كتفه . خرج الغضبان من منزله كالثور الهائج ، وحمل الطفل الجريح الذى سقط من فوق الشجرة فاقد النطق ، وألقى به خارج سور حديقته ، والتقط تفاحة وجدها تحت الشجرة وأخذ يقضمها في متعة ونهم وهو متجه نحو باب منزله .

● ● ● ●

أفــراح الـمـلائـكـة



عام ١٩٤٧ ، البلاد تظللها سحابة سوداء وتهب عليها رياح الفناء ، فالوباء يجتاح مصر حيث يتساقط البشر كقطرات المطر التى يمتصها التراب . مئات المرضى ينقلون كل يوم إلى مستشفيات تقذف بهم إلى مقابر فاغرة أفواهها جائعة لا تشبع .

أجزاء من الدولة محاصرة معزولة لا يسمح فيها بدخول أو خروج . قوات الجيش تراقب الطرق وتفحص ما تحمله العربات من فاكهة وخضراوات لتطهيرها أو إعدامها . وتقبض على الهاربين من أماكن العزل لاعادتهم إلى الأماكن التى كانوا فيها لضمان عدم تسرب الموت إلى أماكن جديدة .

الرعب يسيطر على المواطنين فى كل لحظة من لحظات الليل والنهار . فالمرض ينقض على ضحاياه بلا مقدمات ويستنزف ما فى أجسادهم من ماء . الصحف والاذاعة تنقل إلى الجماهير أنباء وعدد صرعى الوباء كل يوم . الاصابات فى ازدياد مطرد ولا تبدو للوباء نهاية . العيون مفتوحة والآذان مرهفة لتسقط الأنباء .

على ثلاثة أسرة متجاورة فى عنبر أحد المستشفيات ، قد أفراد عائلة ، زوج وزوجة وابنة . قال أحد الأطباء :

— ترى هل اهتمامك بهذه العائلة مبعثه دوافع انسانية أم الجمال غير العادى للابنة ؟

أجاب الطبيب الشاب شوقى عبد المنعم قائلا :
— إنها كارثة كبرى للبشرية لو يمحى من الوجود مثل هذا الجمال . ولكن هناك سببا آخر لا هتمامى بهذه العائلة المنكوبة . الأستاذ عبد السلام الشرقاوى رب العائلة كان أستاذى فى المدرسة الثانوية ، وهو من أفضل الأساتذة الذين علمونى .
— وهل كنت تعلم أنه والد ملكة الجمال هذه ؟
— لم أراها إلا أمس عندما حضرت مع أبيها إلى المستشفى .
فى اليوم الثالث ، عندما صحت منى من نومها لاحظ الدكتور شوقى أنها تحسنت تحسنا ملموسا . قالت للدكتور شوقى :
— أين بابا وماما ؟
قال وقد لمعت الدموع فى عينيه :
— نقلا إلى مستشفى آخر .
انفجرت تبكى وقالت :
— لماذا أبقى أنا ؟ لا حياة لى بدونهما فليس لى سواهما . أرحنى من حياتى يادكتور . كيف أعيش وحدى فى هذه الدنيا المرعبة ؟
— لن تكونى وحدك ما دمت أنا معك .
— أريد أن أموت .
بعد شفائها ، بينما تهم بالهبوط من سلم المستشفى مطرقة للأرض فى لحظة من تلك اللحظات التى يشعر فيها الانسان بأن الموت أفضل من رعب الوجود ، أسرع إليها الدكتور شوقى وأمسك بيدها وسحبها برفق إلى غرفته بالمستشفى . فسارت معه مستسلمة ، وبلا مقدمات قال لها :
— هل تقبليننى زوجا ؟

أطرقت للأرض وقد احمر وجهها الشاحب .
قال المأذون :
— هذه أول مرة فى حياتى أعقد قرانا فى مستشفى .
ظلت منى بعد أن تم عقد قرانها جالسة فى غرفة زوجها الدكتور شوقى حتى حان موعد انصرافه ، فذهبا معا إلى شقته ، منزل أنيق فى عمارة رائعة تطل على النيل .
قال لها وهى جالسة بجواره شاردة الذهن :
— سأكون أباك وأمك وزوجك .
انخرطت فى بكاء عنيف .
من رحمة الله بنا أن جعلنا ننسى ، هكذا دارت الأفكار فى ذهن الدكتور شوقى عندما وجد زوجته بعد بضعة شهور وقد بدأت تلتئم جراح قلبها وتعود الابتسامة إلى ثغرها ، كما لاحظ ظهور أعراض الحمل . لم يكن الذى فى احشائها طفل واحد ، بل توأمان . أطلقا عليهما اسمى « لبنى » و « ليلى » . وبعد عام رزقا بمولود آخر هو « طاهر » .
قالت لبنى لأبيها :
— أريد لبن العصفور .
ولو أن العصفور ليس حيوانا ثديبا ، ونتيجة لذلك فهو لا يفرز لبنا ، فإن أحدا لايعلم كيف تمكن الدكتور شوقى من إحضار لبن العصفور لابنته !
فى منتصف شهر يناير قالت ليلى لأبيها :
— أريد عنبا .
وعلى الرغم من عدم وجود أى أثر للعنب فى مصر فى شهور الشتاء . فلقد تمكن الدكتور شوقى من احضار العنب لابنته

ولا أحد يدرى كيف حدث ذلك ؟

فى صباح اليوم الأول من شهر رمضان قال طاهر لوالدته :

— ماذا أحضر لنا رمضان هذا العام ؟

— زارنا وأنتم نائمون كعادته وأحضر لكم الأشياء التى اعتاد احضارها كل عام . تعالوا معى لتروها .

أدخلتهم إحدى الغرف فرأوا الفوانيس الملونة والشموع وقمر الدين والكنافة واللوز والجوز والبندق . وكأنهم يعيشون فى أسطورة خلابة .

أصبح سن التوأمين أربع سنوات وسن طاهر ثلاث سنوات . قال طاهر لأبيه :

— أريد عصفورا أصفر فى قفص أزرق .

خرج الأب ليحضر العصفور ، وفى أثناء عبوره الشارع والقفص الأزرق فى يده . خرجت بغتة من شارع جانبى سيارة مسرعة صدمته وانهت حياته فى لحظة . وظل العصفور على قيد الحياة .

ذهلت الزوجة وظلت تقاوم البكاء وهى بين أطفالها ، ولكن مقاومتها أخذت تضعف تدريجيا حتى انفجرت تبكى ، ولم يفهم الأطفال سر بكائها . بكى طاهر وقال :

— لماذا لم يحضر لى بابا العصفور ؟

وجدت الأم نفسها مسئولة عن أطفال ثلاثة بلا أية موارد غير المكافأة الضئيلة التى صرفت لها عند وفاة زوجها . إذ لم يكن استوفى المدة التى يستحق بعدها أى معاش . قرب نهاية الشهر تركت الأم وأطفالها المنزل المطل على النيل . واستأجرت شقة من غرفتين فى بيت عجوز بحى السيدة زينب . لم يدرك الأطفال سبب

هذا التغيير الذى طرأ على حياتهم . سأل طاهر أمه :

— أين بابا ياماما ؟ لماذا لم نعد نراه ؟

— سافر إلى مكان بعيد .

— ومتى سيأتى ؟

— لست أدرى .

إن هذا الجنس البشرى الذى أنتمى إليه ما هو إلا مجموعة من الذئاب الشرسة . لقد فقدت ثقتى فى هؤلاء الآدميين . ألا يوجد قلب انسان يخفق لشقاء امرأة ضعيفة فى محنة دون أن يطلب منها مثل هذا الثمن ؟

هكذا حدثت منى نفسها وهى عائدة إلى بيتها بعد أن أضناها التعب بحثا عن عمل ترتزق منه . فالأعمال التى صادفتها كثيرة . ولكن لكل عمل ثمنا باهظا لا تقبل التفريط فيه .

بعد أيام وليال طال فيها الأرق حصلت على عمل فى مصنع للتفصيل . قال لها صاحب المصنع :

— فترة العمل ست ساعات فيما عدا يوم الجمعة . ولا أجر على فترة التدريب . وسيكون أجرك ثلاثة جنيهات ونصف فى الشهر .

نعمة من الله لم أكن أحلم بها . هأنذا أخيرا أجد انسانا لا يطمع فى عرضى .

ولكن الألسنة من حولها لا ترحم .

— لا أحد يدرى من أين جاءت هذه المرأة . انها تترك أطفالها الصغار وحدهم طوال النهار وتسعى وراء لذاتها .

— يقال أنها تخدم فى منزل رجل أعزب .

— سمعت أنها تزوجته زواجا عرفيا .

— لا عرفى ولا غير عرفى .

أقبل شهر رمضان لأول مرة بعد وفاة زوجها . بدأت الأنوار تسطع فى المآذن . وأطفال الحى يمرحون بفوانيسهم الملونة مرددين أغانيهم التى اعتادوا ترديدها فى شهر رمضان .

استقبلت منى شهر رمضان استقبالا حزينا ، إذ وجدت نفسها عاجزة عجزا تاما عن توفير بعض أسباب السعادة التى اعتاد الأطفال الاستمتاع بها فى ذلك الشهر الكريم .

قالت لبنى :

— لماذا أصبح الطعام رديئا هذا العام ؟

قالت الأم :

— لست أدرى .

قالت ليلى :

— ولماذا طال غياب بابا ؟ متى سيحضر ؟

قالت الأم :

— لست أدرى .

قال طاهر :

— لماذا لم يحضر لنا رمضان الأشياء التى كان يحضرها لنا كل عام ؟

أجهدت الأم ذهنها للاجابة عن هذا السؤال ، وأخيرا خطرت لها فكرة :

— رمضان لم يات هذا العام .

قالت ليلى :

— ولكننى رأيت الأطفال يلعبون بفوانيسهم فى الشوارع ويغنون أغانى رمضان .

سمعت الأم أذان المغرب فاقبلت على المائدة وتجمع حولها

الأطفال وكأنهم قطيطات يرضعن من أم جف لبنها . قالت ليلى :

— قبل أن يسافر أبى كان عندنا أكل كثير أحسن من هذا .

قالت لبنى :

— أين قمر الدين ياماما ؟ أنا أحب قمر الدين .

قالت ليلى :

— وأنا أحب الكنافة . لم نأكل كنافة هذا العام .

قال طاهر :

— هل سنظل نأكل كل يوم هذا الفول والفجل الذى لا طعم له ؟

قالت لبنى :

— لماذا تنسين إحضار اللحم ياماما ؟ انه موجود فى الدكاكين .

قال طاهر وقد قطب حاجبيه :

— ولماذا لم نجد بندقا ولوزا ؟ لماذا لم يات رمضان ؟

لم تجد الأم ردا على هذه التساؤلات فقالت :

— لقد أتى رمضان ولكنه لم يحضر إلى منزلنا . انه لا يذهب إلى جميع البيوت .

قالت ليلى :

— ولماذا لم يات إلى بيتنا ؟ هل هو غاضب منا هذا العام ؟ هل اغضبه أحد منا ؟

قالت الأم :

— لم نغضبه . ولكنه لا يذهب إلى كل البيوت .

قالت لبنى :

— ولكنه جاء إلى الشقة التى أمامنا .

قالت ليلى :

— وكيف عرفت ذلك ؟

قالت لبنى :

— رأيت ابنتهم تأكل أشياء من التى يحضرها رمضان .

قالت ليلى بلهفة :

— ماذا كانت تأكل ؟

قالت لبنى :

— كانت تأكل لوزا وجوزا ووقعت منها بندقة على السلم فأخذتها وأكلتها .

قال طاهر :

— أكلتها ؟ لماذا لم تتركى لى قطعة منها ؟

قالت لبنى :

— كانت بندقة صغيرة .

قالت ليلى :

— وإذا لم يأت رمضان هذا العام فهل سيأتى فى العام القادم ؟

قالت الأم :

— ربما يأتى فى العام القادم . من يدرى ؟

لم تستطع الأم السيطرة على دموعها التى سالت على خدها ، فأدارت وجهها بعيدا عن أبنائها وأخذت تمسحها بيدها . ولكن ليلى لاحظت بكاء أمها فقالت :

— لماذا تبكين ياماما ؟

انتفضت الأم واقفة وقالت :

— سأخرج أبحث عن رمضان وأسأله عن سبب عدم حضوره إلى بيتنا هذا العام وأطلب منه أن يأتى . ربما يكون قد ضل الطريق إلى منزلنا لانتقالنا إلى بيت آخر .

تركت أطفالها وحدهم بالبيت وخرجت تبحث عن ثلاثة جنيهات

تشترى بها لأطفالها الأشياء التى يفرحون بها فى رمضان .

كان أول باب طرقته باب الشقة المقابلة لشقتهم . كانت ربة البيت عند سماع جرس الباب جالسة فى البهو تنقى الأرز من الشوائب . استقبلت منى بفتور .

ماذا تريد هذه المرأة منى ؟ أنا لا أعرف لها أصلا ولا علم لى بحقيقة أمرها . الاشاعات حولها كثيرة . هل حضرت لتخطف منى زوجى ذا العينين الزائغتين ؟

— أهلا وسهلا .

— هل أجد معك ثلاثة جنيهات اشترى بها لأطفالى لوازم رمضان وأردها إليك فى أقرب وقت ؟

ثلاثة جنيهات ؟ ! هل تظنيننى عبيطة لأصدق أن هذا الجمال كله لا يمتلك ثلاثة جنيهات ؟ أم تراها تريد أن تبعد الاشاعات عنها .

— أنت تعلمين ياست منى أن مطالب شهر رمضان كثيرة وزوجى موظف بسيط .

غادرت ذلك البيت وذهبت إلى البقال الذى اعتادت شراء أشيائها منه .

— ثلاثة جنيهات فقط ؟ هذا مبلغ تافه ياست منى . مثلك يستحق مئات الجنيهات . ولكنك تمرين أمام الدكان كل يوم دون أن تجودى على بابتسامة أو مجرد نظرة .

تركته دون تنطق بكلمة وسارت على قدميها حتى وصلت إلى العمارة التى كانوا يعيشون فيها قبل انتقالهم إلى المسكن الحالى . كان زوجها قد عالج أحد جيرانه ورفض أن يتقاضى أتعابا . ذهبت إلى زوجة هذا الرجل وطلبت منها السلفة . لم تحسن الزوجة لقاءها وقالت :

— زوجي يعطيني مصروف البيت يوما بيوم . واشتريت ما يلزمنا اليوم ولم يبق معي شيء .

كانت تود أن تجلس بعض الوقت في بيت جارتها القديمة لتستريح من عناء السير . ولكنها لم تشأ أن تمكث لحظة أخرى مع هذه المرأة . فعادت إلى منزلها . أسرع إليها الأطفال وسألتها ليلى بلهفة :

— هل وجدت رمضان ياماما ؟

— لم أستطيع العثور عليه هذه المرة ولكنني سأستمر في البحث عنه غدا .

نام الجميع وحلم الأطفال الثلاثة حلما واحدا وكأنهم كانوا يحلمون معا . رأوا أنفسهم يدخلون إحدى غرف البيت فيجدونها مليئة بالفوانيس الملونة والشموع وقمر الدين والكنافة والبندق والجوز واللوز والزبيب . كما كان يحدث قبل غياب أبيهم .

في الصباح استأنفت الأم رحلتها للحصول على السلفة ولكنها لم توفق في هذه المرة أيضا . وفي اليوم التالي واصلت البحث . كان الأطفال يطلون من النافذة في انتظار أمهم التي تأخرت في ذلك اليوم أكثر من المرتين السابقتين . عندما طال غياب الأم قالت ليلى :

— ماما تعبت من البحث . سأخرج أنا أبحث عن رمضان هذا الذي لم تستطع ماما العثور عليه . وانتظراني أنتما ريثما أعود .

قالت لبنى :

— نأتي معك .

— لا . امكثا أنتما حتى لا تجد ماما البيت خاليا عندما ترجع .

بينما تجول ليلى في شوارع الحي باحثة عن رمضان رأت دكان

بقال امتلأ مدخله بشتى أنواع الياميش . فوضعت أصبعها في فمها ووقفت تتأمل هذا المنظر الجميل .

لماذا لا أسأل صاحب الدكان ؟ لابد أنه يعرفه .

— هل أنت صاحب الدكان ياعم ؟

— أجل . ماذا تريدين ؟

— هل تعرف رمضان ؟

لم يعرها الرجل أي اهتمام لانشغاله مع أحد الزبائن . فجلست في أحد أركان الدكان . وفجأة وجدت نفسها تبكي . سألها صاحب الدكان :

— ماذا تريدين ؟

— لا أريد شيئا . أنا أنتظر رمضان فربما يأتي هنا .

— من هو رمضان هذا ؟

— ألا تعرف رمضان ؟

— قومي من هنا واذهبي إلى بيتك .

خرجت من الدكان وواصلت جولاتها في الشوارع وانتهى بها المطاف عند جامع السيدة زينب .

ربما جاء رمضان ليصلي في هذا الجامع . بابا عندما كان عندنا كان هو أيضا يصلي .

ارتفع صوت المؤذن للصلاة . فتراجعت ليلى لتزداد المسافة بينها وبين الجامع محاولة رؤية مصدر الصوت في أعلى المئذنة . في تلك اللحظة أقبلت سيارة فارهة أوشكت أن تدهمها . فذعرت وهرولت نحو الرصيف . توقفت السيارة وهبط منها رجلان دخلا الجامع . شعرت ليلى بإعياء فجلست القرفصاء بالقرب من باب الجامع ودفنت رأسها في حجرها . انتهى الرجلان من صلاتهما

فخرجا من المسجد ووقفا يتحدثان بجوار السيارة . قال أحد الرجلين للآخر :
— سأنتظرك الليلة بمنزلي بعد الافطار .
— هل ستسهر بالمنزل ؟
— أجل .
— لماذا لا تذهب إلى مقهى الفيشاوى ؟
— أفضل البقاء في البيت . أنت تعلم أنني لا أميل كثيرا للسهر في الخارج .
— ألا تشعر بالملل وأنت بمفردك ؟
— أشغل وقتي بالقراءة . سأنتظرك الليلة .
— وهو كذلك .
افترق الصديقان وهم صاحب السيارة بركوب سيارته . وتحركت السيارة . تذكر الآخر شيئا يود أن يقوله لصديقه . فصاح قائلا :
— يا رمضان .
توقف رمضان بسيارته استجابة لنداء صديقه عبد الرحيم . قال عبد الرحيم :
— تذكرت أنني لن أستطيع الحضور إلى منزلك الليلة . فأنا مرتبط بموعد هام .
— أراك غدا إن شاء الله .
قبل أن تتحرك السيارة من جديد . انقضت ليلى على رمضان وتشبثت بذراعه من خلال نافذة السيارة وسألته باكية :
— هل أنت رمضان ؟
انتفض الرجل لتلك المفاجأة وقال بغضب :

— أجل أنا رمضان . ماذا تريدين مني ؟
استرعى هذا المشهد انتباه عبد الرحيم فوقف يتابعه . قالت ليلى وهي ما زالت تبكي متشبثة بذراع رمضان :
— ماما تبحث عنك في كل مكان . لماذا لم تزرنا هذا العام كعادتك ؟
— ابنة من أنت ؟
— بابا اسمه شوقي . هو أيضا لم يعد يزورنا . ماما تقول أنه سافر .
أجهد رمضان ذهنه في التفكير باحثا في ثنايا ذاكرته عن صديق يدعى شوقي :
— شوقي ؟ شوقي من ؟
— شوقي عبد المنعم . كان دكتورا .
وكأنه يحدث نفسه قال :
— الدكتور شوقي عبد المنعم ؟ أنا لا أذكر شخصا بهذا الاسم .
وهي ما تزال تبكي :
— لكنك كنت تزورنا كل عام في رمضان . لماذا لم تأت عندنا هذا العام ؟ ماما تعبت من طول البحث عنك .
قال بدهشة :
— هل تعرفينني يا ابنتي ؟
اختنقت بالبكاء وقالت :
— كلنا نعرفك . أنا وماما ولبنى وطاهر . ولكنك نسيتنا . ومنذ أول رمضان ونحن نبكي جميعا لأنك لم تزرنا هذا العام .
بدا حديث الطفلة لرمضان وكأنه لغز عسير الحل . وظل

عبد الرحيم مشدوها طوال الحديث يحرك عينيه بين الطفلة وصديقه رمضان . قال لرمضان .

— يبدو أن الطفلة تعرفك معرفة وطيدة . قد تكون ابنة أحد أصدقائك ، حاول أن تتذكر .

— أنا لا أذكر صديقا بهذا الاسم .

— أصحبها معك إلى بيتها فقد تكتشف علاقتك بهذه العائلة .

قال رمضان :

— ما اسمك ؟

— ليلى .

— تعالى معي في السيارة ودليني على بيتكم لأتذكره . فقد أكون نسيته .

فتح باب السيارة فقفزت وجلست جنبه وقالت :

— ماما تقول أنك نسيتنا هذا العام لأننا انتقلنا إلى بيت غير الذى كنت تزورنا فيه .

سارت العربة الضخمة تشق طريقها بصعوبة في تلك الحوارى الضيقة المزدحمة بالمرة ، وليلى ترشد الرجل لمعرفة الطريق ، صاحت قائلة :

— قف هنا ، ها هو ذا بيتنا .

نظر الرجل إلى البيت الذى أشارت إليه فوجده مترنحا محا الزمن معظم طلائه .

— أنا لم أر هذا البيت من قبل .

— ألم أقل لك أننا انتقلنا إليه من مدة قصيرة . كنا في بيت حلو في العام الماضي لابد أنك تعرفه لأنك زرتنا فيه ، وجئنا هنا بعد أن سافر بابا . هل تذكر بيتنا الذى كان على شط النيل ؟ ربما تكون

نسيته لأنك تزور بيوتا كثيرة .

قال بدهشة :

— أزور بيوتا كثيرة ؟

— نعم ، وكنت تزورنا كل سنة ، ألا تذكر ؟ تعال معي نصعد لترى شقتنا الجديدة . تركت أخى طاهر وأختى لبنى وحدهما وخرجت أبحث عنك .

— وماما ، أليست معهما ؟

— ماما خرجت تبحث عنك ، ألم أقل لك إنها تعبت من البحث عنك ؟

صعد معها درجات السلم التي كان يخشى أن تنهار في أية لحظة . دقت جرس الباب صائحة وكأنها قائد عاد منتصرا من ميدان القتال :

— افتحوا ، أنا لقيت رمضان .

فتح الباب وأطل منه رأسان صغيران بدت في ملامحهما الدهشة والفرح .

قالت ليلى :

— ألم تحضر ماما حتى الآن ؟

تركزت عيون لبنى وطاهر على رمضان وكأنهما تنظران إلى مخلوق أسطورى هبط من السماء . استمرت ليلى تقول وفي صوتها رنة الانتصار والفخار :

— وجدته ، أحضرته . ماما ما زالت تبحث عنك يا رمضان ولم تعثر عليك ، ولكنني أنا وجدتك . كنت ستفلت منى .

قالت لبنى :

— أين كنت ؟ ألم تكن تعلم أننا هنا ؟

قالت ليلى بزهو :

— وجدته جنب الجامع . كان سيركب السيارة ويجرى .

قالت لبنى :

— ولماذا لم تزرنا هذا العام ؟

قال الرجل وقد ازدادت حيرته :

— ماهي حكايتكم ؟ ألا يوجد شخص كبير فى هذا البيت استطيع التحدث معه ؟

قال طاهر :

— لا يوجد غيرنا . ماما خرجت تبحث عنك ولم ترجع حتى الآن ، أنت دوختها . كل يوم تخرج تبحث عنك ولا تجدك . أين كنت يا أخى ؟ هل كنت مختبئا أم ماذا ؟

قال رمضان وهو ما يزال يبذل كل جهد لحل هذا اللغز

— تبحث عنى أنا ؟ لماذا ؟

قالت لبنى :

— تريد أن تعرف لماذا ؟ .. أنت غاضب منا هذا العام ولا تريد أن تزورنا ، مع انك زرت الشقة التى امامنا وزرت كل الناس واحضرت لهم قمر الدين وكنافة وبندقا ولوزا وكل حاجة ، ولم تات عندنا لم تحضر لنا أى شىء ، هل أنت غاضب منا أم ماذا ؟ أتعبتنا وأتعبت ماما .

— ألا تحضرون الكنافة وقمر الدين واللوز والجوز إلا إذا حضرت عندكم ؟

قالت لبنى :

— وماذا تظن ؟ ألست أنت الذى تحضر للناس كل هذه الأشياء ؟

قالت ليلى :

— ألست أنت رمضان ؟

— ألم تحضر لكم هذه الأشياء هذا العام ؟

قالوا معا :

— لا .

قالت لبنى :

— ماما قالت لنا انك لم تحضر لنا هذه الأشياء لأنك غاضب منا هذا العام . ألا تذكر انك زرتنا فى العام الماضى عندما كان بابا معنا فى البيت وأحضرت لنا أشياء كثيرة حلوة ، حتى الفوانيس والشموع لم تكن تنساها .

بكى طاهر وقال :

— لماذا نسيتنا هذا العام . كل الناس نسونا . حتى بابا أيضا لم نعد نراه . ماما تقول انه مسافر .

قالت ليلى :

— ماما قالت لى أنه ذهب إلى الجنة ، والجنة مكان حلو كما تقول ماما .

قال طاهر :

— لو كان ذهب إلى الجنة لأخذنا معه ولم يتركنا هنا ، كان دائما يأخذنا معه إلى أى مكان حلو .

قال الرجل وقد بدأ يدرك المأساة :

— تقولون ان ماما خرجت تبحث عنى لأحضر لكم هذه الأشياء ؟

قالت لبنى :

— نعم ، ماما تعبت . ولكنك حضرت وليس معك أى شىء ، هل وزعتها كلها على الناس ؟

همست ليلى في أذن لبنى قائلة
— لم يكن يخيل إلى أن رمضان يبكى مثلنا
قال رمضان :
— كنت ناويا زيارتكم ، ولكننى تأخرت هذا العام لأننى بحثت عنكم ولم أجدكم . سأذهب الآن وأحضر لكم كل ما تريدون
قالت ليلى
— أذهب معك حتى لا تفلت منا
— لن أفلت منكم . تعالى معى
جلست ليلى بجواره في سيارته . اشترى لهم كنافة وقطائف وكميات هائلة من السمن والسكر واللوز والجوز والبندق والزبيب والملبن وحلوى جوز الهند وقمر الدين حتى امتلأت السيارة وعادا إلى البيت . وضع الرجل هذه الأشياء في بهو المنزل . باس الأطفال الثلاثة وقال
— سأترككم الآن لأننى ذاهب لزيارة ناس آخرين .
قالت ليلى
— سننتظرك في العام القادم . لقد عرفت البيت ولم تعد لك حجة .
— لا تقلقوا ولا تحزنوا . سأزوركم كل عام . وعندما تحضر ماما سلموا لى عليها وقولوا لها إن رمضان تذكركم وأحضر لكم هذه الأشياء .
وأخرج من محفظته عدة جنيهات لفها في ورقة وسلمها لنبيل قائلا :
— عندما تحضر ماما أعطوها هذه الأوراق وقولوا لها إن رمضان أحضرها لكم

قالت لبنى
— هذه فلوس .
— أجل . حافظوا عليها ولا تضيعوها .
قالت ليلى
— السنة الماضية لم تحضر لنا فلوسا . أحضرت لنا هذا العام أشياء كثيرة أكثر من كل عام . ماما ستفرح مثلنا . كانت تبكى كثيرا . لن تبكى بعد ذلك
خرج الرجل وأخذ الأطفال يفحصون هذا الكنز الذى تركه لهم .
لم تتمكن الأم في هذه المرة أيضا من الحصول على المبلغ الذى خرجت تبحث عنه . عادت تجر ساقيها بصعوبة وقد بدت قطرات العرق على جبينها . وما كادت تفتح باب شقتها حتى أوشكت على الإغماء . رأت بريق الفرح يطل من عيون أبنائها وقد امتلأ البهو بالأشياء التى أحضرها رمضان . وقبل أن تستطيع النطق قالت لبنى
— رمضان زارنا ياماما وأنت في الخارج
قالت ليلى :
— أنا التى عثرت عليه . كان سيجرى بالعربة ولكننى أمسكت به ولم أتركه يفلت منى . وسألته لماذا لم يزرنا . فجاء معى إلى البيت وأخذنى معه في عربته . رمضان له عربة ياماما .
قالت لبنى
— لابد من ذلك ليوزع الأشياء على الناس .
قالت الأم التى لم تفق بعد من ذهولها :
— من الذى أحضر هذه الأشياء ؟
قالت ليلى :

— ألم أقل لك ان رمضان هو الذى احضرها ؟ منذ دخولك البيت ونحن نقول ذلك . ألم تسمعي ما قلناه ؟

قالت الأم

— تكلموا . من الذى أحضر هذه الأشياء ؟

قالت لبنى :

— منذ حضورك ونحن نتكلم . لم نتوقف عن الكلام .

فقدت الأم سيطرتها على اعصابها فصاحت قائلة

— قولوا الحقيقة حتى لا اضطر لضربكم بالعصا انتم الثلاثة

قالت ليلى

— لقد قلنا الحقيقة ياماما . رمضان هو الذى أحضر هذه الأشياء وأعطانا هذه الفلوس ايضا . وطلب منا ان نعطيها لك

تناولت الأم النقود وأخذت تعدها فوجدتها خمسين جنيها . وادركت أنها لم تجلس منذ دخولها البيت على الرغم من الاعياء الشديد الذى تشعر به . فجلست على احد الكراسي وقالت لليلى

— وأين عثرت على رمضان ؟

— بالقرب من الجامع . سمعت شخصا يناديه ويقول له . يارمضان . وكان سيجرى بسيارته . ولكنني امسكت به وقلت له انك تبحثين عنه في كل مكان .

— ثم ماذا ؟

— سألته لماذا لم يزرنا هذا العام فقال انه بحث عنا ولم يجدنا .

— ما شكله ؟

— شكله حلو . ويلبس بدلة زرقاء .

قالت لبنى :

— هل تصدقين ياماما انه يبكى مثلنا . كان يخيل إلى انه يختلف عن كل الناس

قالت الأم بدهشة

— يبكى ؟! من الذى يبكى ؟

— رمضان . بكى وحاول إخفاء وجهه عنا . ولكننا رأيناه عندما بكى

— ولماذا بكى ؟

— لا ندرى

— ألم يترك اسمه وعنوانه ؟

قالت ليلى

— ولماذا يترك اسمه ما دمنا نعرف أن اسمه رمضان ؟

ظل هذا الرجل المجهول يحتل جزءا كبيرا من تفكير منى منذ ذلك اليوم . وذات مساء بينما كانت تسير بصحبة ابنتها ليلى في احد شوارع المدينة قالت ليلى

— ألم تقولى لي ياماما أن رمضان سيحضر بعد شهرين ؟

— أجل . سيحضر رمضان بعد شهرين .

— ولكنني رأيته الآن دخل هذا المحل .

— رمضان الذى احضر لنا الأشياء ؟

— نعم . هو بعينه .

— أمتأكدة أنت من ذلك ؟

— لست تائهة عنه . أنا لا أنساه ابدا . هيا ياماما سلمي عليه حتى لا يغضب منا . انه طيب جدا .

شعرت منى بعدم رغبة في لقائه . فهي لا تود أن يراها

الشخص الذى تصدق عليها تجنبا للخجل والاحراج . فأسرعت الخطى مبتعدة عن هذا المكان . ولكن في هذه اللحظة خرج رمضان من المحل . فصاحت ليلى قائلة بفرح :

— ها هو ذا رمضان .

التفت رمضان فرأى ليلى ومنى . ولكنه لم يحاول التحدث معهما وسار في طريقه . ولكن ليلى هرعت إليه وامسكت بذراعه كما فعلت عندما رأته أول مرة في السيارة وظلت تجذبه نحو امها قائلة :

— سلمى على رمضان ياماما لئلا ينسانا

وجدت منى نفسها وجها لوجه أمامه . فلم تجد بدا من مصافحته وشكره على كرمه . فقال مبتسما

— أليس من واجبى أن أوزع هذه الأشياء على جميع الناس ، ولاشكر على واجب ؟

قالت ليلى :

— إياك أن تنسانا

— لن أنساكم أبدا .

قالت امرأة بدينة

— وماذا كان من أمر هذه العائلة بعد ذلك ؟

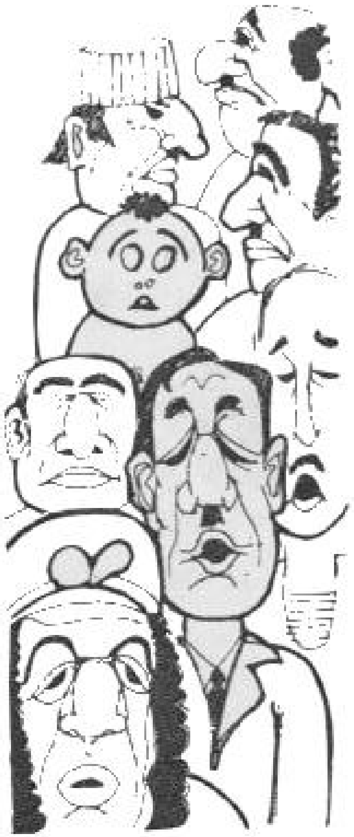
قالت امرأة نحيلة :

— يقال أن الرجل تزوج من منى وعاش معها هى وأولادها في قصر فاخر ، وأن الأطفال كانوا سعداء بوجود رمضان معهم بصفة مستديمة حيث احبهم وغمرهم بالهدايا والحنان . ويقول آخرون إن منى رفضت الزواج منه عندما عرضه عليه وآثرت أن تكرس كل حياتها لأبنائها . ويقول البعض أنها توفيت وتركت الأطفال تحت رحمة القدر . ولا أعرف حقيقة ماحدث .

الموتى

غادر المبنى حزينا عندما علم أن الوظيفة التى تقدم لشغلها كانت في هذه المرة ايضا من نصيب شخص آخر من الأربعمائة والخمسين الذين تقدموا معه للحصول عليها . الشارع مزدحم بالناس . فسار يشق طريقه بصعوبة فاحصا وجوه المارة وقد خيل إليه أن عددا كبيرا من الشبان الذين يزحمون الطريق هم أنفسهم الذين يزاحمونه كلما تقدم لشغل إحدى الوظائف .

شعر بكراهية شديدة لكل من يراهم في الطريق . وتمنى أن يحصل على مدفع أو بندقية سريعة الطلقات . ليزيل من الوجود هؤلاء البشر الذين يزاحمونه في كل مكان .



عندما عاد الى منزله فى مساء ذلك اليوم ، جلس فى البهو .

لا شىء أجمل من الوحدة والبعد عن الناس . هل وراء الناس سوى الأذى ؟ ها هو ذا البيت هادىء لا أجد فيه من يقلق راحتى ويعكر صفو حياتى . لا داعى للزواج . لن أتزوج . . لماذا أجلب لنفسى القلق والشقاء وأتحمل مسئولية زوجة وأولاد وأقاسى من متاعبهم ومشكلاتهم التى لا تنتهى ؟

لست أدرى لماذا يتزوج الناس ؟ إنهم يقلدون بعضهم بعضا بلا تفكير معتقدين أن الزواج شىء حتمى كالأكل والشرب والنوم والموت . لا ، لن أتزوج . الفترة التى أقضيها بمفردى فى منزلى هى التى أشعر فيها بالراحة . ربما أتزوج . من يدرى ، لا أحد يدرى ماذا سيحدث غدا . يخيل الى أن الذى سيحدث غدا هو نفسه الذى حدث اليوم وأمس وقبل أمس . سأصحو من النوم فأجد بائع الصحف القى بالصحيفة من تحت باب الشقة فلا أرى بها سوى أخبار مزعجة . ثم يأتى بائع اللبن بوجهه الكئيب فآخذ منه اللبن متجنبا النظر الى خلقته ثم أتناول فطورى الذى لا يتغير ، الفول الذى يحضره البواب . ثم أغادر المنزل باحثا عن وظيفة فأجد الشارع كما هو لم يتغير ، فى حالة هستيريا . يصطدم الناس بعضهم ببعض من شدة الزحام ويتسابقون لركوب وسائل المواصلات الكئيبة المكتظة بأجساد الآدميين التعساء وكأنهم مجرمون محكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة التى تنتهى بالاعدام . حياة مقرفة مملة بلا معنى . أعصابى متوترة . يقولون إن الموسيقى تريح الأعصاب . فلأجرب .

قام ببطء متجها نحو الجرامافون وأدار السيمفونية السادسة لتشايكوفسكى وجلس ينصت اليها وقد قطب حاجبيه . ثم أسرع بايقاف الموسيقى .

- لست أدرى من الحمار الذى قال إن الموسيقى تهدىء الأعصاب ؟ لقد أثارت أعصابى أنا لا أحتمل سماع الموسيقى إلا عندما أكون هادىء الأعصاب . النفوس المعذبة لا يسعدها ويفرج كربها سوى زوال أسباب شقائها . سأوى إلى فراشى لأهرب من الأحزان التى تعربد فى رأسى . النوم خير علاج للأعصاب المرهقة .

صحا من نومه فى نحو الحادية عشرة صباحا .

شىء عجيب . لماذا لم يحضر بائع الصحف الصحيفة ؟ وبائع اللبن ، ربما يكون حضر ودق جرس الباب وأنا مستغرق فى النوم . لا داعى للصحيفة ، أشتريها عندما أخرج . ولا داعى للبن فلست طفلا . أنادى البواب ليحضر لى الفول .

ـ يا عبده . يا عبده .

ماذا حدث لهؤلاء الناس ؟ فى أية داهية ذهب البواب ؟ لا داعى للفطور . أتناول شطيرة فول أو أى سم هار من أحد المحال عندما أخرج . عيشة تقرف . باق معى أربعون جنيها ، لو أنفقتها قبل الحصول على وظيفة فسأموت جوعا دون أن يشعر بى أحد أو يرثى لحالى أى إنسان . الناس لا يهتمون إلا بأنفسهم . لم يساعدنى أى مخلوق منهم فى حياتى . عيشة تقصف العمر . لم أر من الناس سوى الأذى والقرف . ما هذا الهدوء الذى فى الشارع ؟ ! لماذا اختفت الضجة التى كانت تقلق منامى ؟ ! ربما كان هذا الهدوء السبب فى نومى حتى الحادية عشرة .

كعادته كل صباح ، فتح النافذة لتجديد الهواء ، فرأى منظرا أذهله . الشوارع مزدحمة بالبشر وبوسائل المواصلات كالمعتاد ، ولكن كل شىء ساكن لا يتحرك وكأنه مشهد سينمائى توقفت عند لحظة معينة الآلة التى تعرضه . المارة توقفت حركتهم ، ووسائل

المواصلات العامة محشوة بالآدميين . ولكن الجميع في وضع ثابت وكان صاعقة انقضت عليهم فحالتهم الى تماثيل لا روح فيها .

لم يصدق عينيه فأخذ يدلكها . ولكن المشهد ظل كما هو لم يتغير . ارتدى ملابسه بأسرع ما يمكنه وخرج الى الطريق مهرولا ليرى ماذا حدث للدنيا . سار في الشوارع يتفرس في وجوه الناس ثم أخذ يتحسس أجسادهم . لم يتحولوا الى حجارة . أجسادهم لينة ولكن بلا روح عيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى .

ظل يجول في أنحاء المدينة على غير هدى . وأدرك أنه الانسان الوحيد الباقي على قيد الحياة . أبواب المطاعم مفتوحة وبدا بعض روادها واضعين الشوكة أو المعلقة في فمهم . والبعض يقطع اللحم ، وآخرون واقفون في أوضاع مختلفة . وعديد من المحال التجارية مزدحمة بالزبائن . والجميع ثابتون في الوضع الذي كانوا عليه عندما حدث هذا الشيء الرهيب .

شعر بنشوة .

جميع هذه السيارات أصبحت ملكي . ملكي أنا . لقد حزنت عندما أجبرتني الظروف القاسية على بيع السيارة الحقيرة التي كنت امتلكها . سأستقل هذه السيارة الفاخرة . ولكن . ما اللذة التي سأشعر بها وأنا اقود مثل هذه السيارة ما دام لن يراها أحد غيري ؟ لن أشعر بأية لذة . إذ أن المتعة كانت في رؤية الناس لي في اثناء قيادتها . جميع هذه العيون المفتوحة لم تعد ترى شيئا تساوت الآن افخر السيارات مع أحقر السيارات . أشعر برغبة في السير حافي القدمين فالحذاء يضايقني . لن يراني ولن ينتقدني أحد حتى لو تجردت من جميع ملابسي وسرت عاريا كما ولدتني أمي

رحمة الله عليك يا أمي ورحمة الله عليك يا أبي . ليت العمر امتد بكما لترايا ابنكما وقد امتلك الدنيا . كنت سأغمركما بالهدايا واعوضكما عما عانيتما من الحرمان . كنت سأهيىء لكما حياة رغدة في أجمل القصور الحافلة بالأثاث الرائع والتحف الثمينة والخدم . لا ، لا داعي للخدم فلقد ماتوا جميعا . ما فائدة رباط العنق هذا الذي أختنق به نفسي ؟ فليذهب للجحيم . أشعر الآن براحة وأنا أسير حافي القدمين .

ها هو ذا الصالون الفاخر ما زال معروضا في واجهة المحل . كنت كلما رأيته تتوق نفسي لشرائه . ولكنه باهظ الثمن . استطيع الآن أن أحمله الى منزلي . سأحمله في هذا اللوري وأذهب به الى منزلي وألقي بالصالون القديم من النافذة . ولكن ما فائدة هذا الصالون الفاخر الآن ؟ لن يزورني أحد ليراه أو يجلس على كرسيه . جميع المساكن أصبحت ملكي . يمكنني اختيار أجمل القصور المفروشة بأفخر الأثاث وأعيش فيها متنقلا من قصر الى قصر . لا داعي إذن لهذا الصالون إذ يوجد ما هو أجمل منه في هذه المساكن الرائعة التي أصبحت ملكي .

سأستقل هذه السيارة التي كان يهم صاحبها باقفال بابها بالمفتاح عندما حدث ما حدث سأذهب الى البنك . جميع البنوك أصبحت ملكي أنا وحدي . أصبحت مليونيرا .

ها هو ذا أكبر بنك في الدولة . به ملايين الجنيهات . خسارة ، الباب مغلق ها هو ذا باب جانبي مفتوح . العسكري الذي يحرسه واقف كتمثال لا روح فيه . سأدخل .

لم أكن أتصور وجود كل هذا العدد من الموظفين وأمامهم آلاف الجنيهات . ماذا كانوا يصنعون في تلك اللحظة ؟ هل كانوا يقومون

بعملية جرد ؟ انهم لا يشعرون بوجودى . سأملأ جيوبى بالآف الجنيهات .

لم تلمس يداى من قبل مثل هذا العدد الهائل من الجنيهات سأضع فى جيوبى أكبر عدد ممكن وأذهب الى المنزل لاحضار بعض الحقائب لحشوها بالنقود .

وضع النقود فى السيارة وانطلق نحو منزله . وفى أثناء الطريق قفز فى ذهنه خاطر سلب منه فرحته بهذه الأموال .

ما فائدة كل هذه النقود ؟ جميع السلع التى أتوق لشرائها أصبحت الآن فى متناول يدى وفى استطاعتى الاستيلاء على أية سلعة دون حاجة الى نقود . سألقى بكل هذه الجنيهات فى الشارع لم يعد لها لزوم . لن يتقدم أحد لالتقاطها . ستظل فى الشارع حتى تذروها الرياح أو تذيبها الأمطار .

غادر السيارة وواصل تجواله سيرا على الأقدام . وكان كلما شعر بالتعب . يجلس فى أحد المقاهى ليستريح . ولكنه شعر بقلق جعله غير قادر على الاستقرار طويلا فى مكان واحد . فظل يجلس ثم يعاود السير محملقا فى السلع المعروضة فى المحال التجارية حتى أقبل المساء كانت الأضواء الكهربائية ما زالت منبعثة من مصابيح الشوارع وواجهات المحال التجارية . وعلى الرغم من ذلك فلقد شعر بوطأة الظلام متصورا أن عيون الموتى تحدق فيه أينما سار بدأ الخوف يتسرب الى أعماق نفسه فشعر باكتئاب وخيل اليه أنه يجول داخل مقبرة كبيرة فسرت فى جسده قشعريرة .

عند تقاطع الشارع الرئيسى مع أحد الشوارع الجانبية الضيقة ، فى هذا الصمت الرهيب الذى يسود جميع أنحاء المدينة . سمع صوت بكاء طفلة دوى فى أذنيه وكأنه صرخة عملاق

فارتجف واسرعت دقات قلبه . خيل إليه أنه بكاء الموتى . برزت من الشارع الضيق طفلة فى نحو التاسعة ذات عينين سوداوين نجلاوين احمرتا من طول البكاء . وشعر كستنائى متهدل على ظهرها ووجه جميل ناصع البياض ، ترتدى رداء أزرق . كانت تترنح من فرط الاعياء عندما رأته يتحرك متجها نحوها صرخت صرخة فزع ووقعت على الأرض فاقدة الوعى . حملها بين يديه وشعرها الطويل الناعم يكاد يلمس الارض ، وأخذ يعدو حتى وصل الى مطعم كل من فيه تحولوا الى تماثيل . أخذ كوب ماء ورش الماء على وجهها فبدأت تفيق . عندما رأته يدلك يديها ويتفرس فى وجهها عقد الرعب لسانها وظلت محملقة فى وجهه . أخذ يهدىء روعها حتى أنست اليه بعض الشىء . سألها :

ـ الى أين كنت ذاهبة ؟

قالت بصوت خافت متقطع متهدج

ـ أبحث عن ماما

ـ أين ذهبت ؟

ـ خرجت مساء أمس تشترى لى لعبة وظللت انتظرها فلم تعد حتى غلبنى النوم فنمت . ولما صحوت لم أجدها . أخشى ان تكون قد حدث لها مثلما حدث لهؤلاء الناس . لماذا لا يتحركون ؟ إننى أحدثهم فلا ينطقون .

ـ كل الناس كما ترين أصبحوا موتى

أجهشت بالبكاء وقالت :

ـ هل ماتت ماما ؟ أريد أن أراها . لا بد أن أعثر عليها .

شعر بأنه وجد من يؤنس وحدته . إنها طفلة صغيرة . ولكنها مخلوق آدمى يستطيع ان يتحدث اليها وينصت لحديثها حتى

ولو لم يكن له معنى . واعتقد أنه عثر على هدف يعيش من أجله . سيأخذ يدها الصغيرة فى يده ويدور معها فى انحاء المدينة باحثا عن أمها .

- لا تبكى فسنذهب معا للبحث عن أمك حتى نجدها .
- أنا جوعى .
- تعالى معى نتناول طعامنا فى هذا المطعم . كنت قد نسيت الأكل .

سألها بعد أن نالت كفايتها من الطعام :

- أين منزلك ؟
- بعيد ، بجوار الحديقة . أريد أن أرى ماما . سأذهب إلى المنزل وأنتظرها حتى تعود
- ليس من المعقول ان تظلى فى المنزل بمفردك فى انتظار عودة أمك .

أجهشت بالبكاء .

- لا فائدة من البكاء هيا معى نبحث عنها فى كل مكان ولا بد أن نجدها .

انطلقا معا يبحثان عن الأم فى الطرقات وفى جميع المحال التى تبيع لعب الأطفال ، ولكن بلا جدوى . وفجأة صاحت الطفلة قائلة :

- ماما . ها هى ذى واقفة فى هذا المحل .

كانت الأم واقفة عند كابينة دفع النقود وفى يدها اليسرى دمية كبيرة الحجم وفى اليد اليمنى ورقة من ذات العشرة جنيهات . والفتاة الجالسة خلف عداد النقود تمد يدها لاستلام النقود وقد ثبت الاثنتان فى هذا الوضع .

أخذت الطفلة تنادى أمها . ولكن الأم ظلت كما هى ، لا تحس ولا تسمع ولا تتحرك التصقت به الطفلة صائحة :

- أنا خائفة .

انتزعها من المحل وسارا معا فى أحد الشوارع الرئيسية . سمعا نباح كلب . قال وكأنه يحدث نفسه :

- هل يموت الناس وتبقى الكلاب ؟

أخذ نباح الكلب يعلو ، فجذب الطفلة من يدها بقوة صائحا :

- كلب سعران يتجه نحونا ليعقرنا . هيا نسرع بالهرب منه .

انطلق يعدو قابضا على يد الطفلة التى تجرى معه بأقصى سرعتها فى رعب وإعياء شديدين باحثا عن مكان يلوذان به هربا من الكلب الذى يطاردهما . صاحت الطفلة وهى تلهث :

- أنا تعبت من الجرى . لا أستطيع أن أجرى أكثر من ذلك .

رأى الباب الخارجى لأحد المسارح مفتوحا فقال للطفلة :

- هيا نختبىء فى هذا المسرح .

دخلا المسرح وأسرع بإغلاق أبوابه .

- لا تخافى أصبحنا فى مأمن من هذا الكلب المفترس .

كانت الأضواء الجانبية للمسرح مسلطة على الستائر المقفلة بينما بدت الصالة خافتة الضوء فلم تستطع عيونهما تمييز محتوياتها بوضوح عند دخولهما . فجلسا متجاورين فى الصف الخلفى وهما يلهثان ، وسمعا الكلب يواصل نباحه خارج المسرح . ولكن صوته أخذ يخفت تدريجيا حتى تلاشى . عندما تكيفت عينا الطفلة للضوء الخافت همست فى فزع :

- أنظر الناس جالسون على جميع الكراسى .

قام وأخذ يدير بصره فى انحاء المكان ثم جلس وهمس فى أذنها قائلا :

- إنهم جميعا موتى .

التصقت به فى فزع قائلة بصوت خافت لا يكاد يسمع :

- أنا خائفة لا أستطيع البقاء هنا مع كل هؤلاء الأموات

أحاط الطفلة بذراعه وهمس قائلا :

- لا تخاف ما دمت معك . وعلى العموم الموتى الآن فى كل مكان سواء داخل المسرح أو خارجه .

انا لا أخاف من الأموات بقدر خوفى من الأحياء ، فالموتى لا يؤذون أحدا ولا يزاحمون أحدا .

قالت الطفلة وهى ما زالت ترتجف رعبا :

- أسمع صوت ناس يتكلمون .

أنصت محاولا سماع هذه الأصوات ولكن أذنيه عجزتا عن التقاطها

- هذا غير معقول ، فالموتى لا يتكلمون

ولكن الأصوات أصبحت واضحة . فقالت الطفلة وقد اسرعت دقات قلبها

- الستائر تفتح !

- لا بد من وجود أحياء فى هذا المكان فالستائر لا تفتح من تلقاء نفسها .

عندما انفرجت الستائر بدا على المسرح منظر يخلب الألباب . جزء من بحيرة واشجار باسقة . وعلى خشبة المسرح ظهر ممثلان شهيران ، احدهما طويل نحيل والآخر قصير أميل الى السمنة وبدأ بينهما حوار والطفلة فاغرة فمها مبهورة . همست فى أذن رفيقها قائلة :

- إنهم يمثلون !

- هذا واضح . لا تتكلمى ولا تتحركى فهما لا يشعران بوجودنا ويحسبوننا موتى كالآخرين .

لزمت الطفلة الصمت . وبعد فترة ظهرت على خشبة المسرح ممثلة شابة شهيرة ودار بينها وبين الممثل الطويل حوار ، وبعد نحو نصف ساعة انتهى المشهد فغادر الممثلان خشبة المسرح ثم بدأت الستائر تقفل ببطء . همس فى أذن الطفلة قائلا :

- لا بد أن المسرحية انتهت . مساكين . إنهم يمثلون أمام أموات لا يشعرون ولا يصفقون . لقد اعتادوا سماع تصفيق الجماهير . هيا نصفق لهم .

صفقا . فأسرع الممثلون الثلاثة بالوقوف امام الستائر . وصاحت الممثلة قائلة :

- لقد صحا الموتى . إنهم يصفقون !

صاح الممثل القصير قائلا :

- إنه تصفيق خافت . من الذى صفق لنا ؟

- نحن الذين صفقنا لكم ، أنا وهذه الطفلة ، فلقد كان التمثيل رائعا .

قالت الممثلة :

- هل ردت لكما الحياة ؟

- لم نكن موتى . دخلنا المسرح منذ نحو نصف ساعة .

قال الممثل الطويل :

- هل حضرتما لمشاهدة المسرحية ؟

- لقد لذنا بالمسرح هربا من كلب عقور كان يطاردنا .

شعر الممثلون بخيبة أمل . قال الممثل الطويل بحزن وكأنه يحدث نفسه :

ـ إذن لم تحضرا خصيصا لمشاهدة المسرحية .

اختفى الممثلون خلف الستائر . وعند ذلك شاهدت الطفلة ورفيقها شخصا يقوم من بين الموتى ويتجه نحوهما ، فشعرت الطفلة بفزع شديد . ندت منها صرخة وأحاطت رفيقها بذراعيها

قال ذلك الشخص :

ـ لا تفزعا منى فلم اكن ميتا . لست أدرى لماذا بقيت انا ايضا على قيد الحياة . كنت جالسا بين الموتى انا مؤلف المسرحية

ـ واين ذهب الممثلون ؟

ـ ذهبوا الى كواليس المسرح حيث يوجد باقى الممثلين الذين ماتوا .

ـ من أشد الأمور إيلاما للنفس أن يمثلوا أمام جمهور من الموتى .

ـ أجل . ما فائدة التاليف والتمثيل اذا تحول الأحياء فى مثل غمضة عين الى اموات لا يسمعون ولا يشعرون . يعز على ان تكون هذه آخر مسرحية ، اكتبها ، إذ ليس من المعقول أن أواصل الكتابة لجمهور من الموتى .

ـ هيا نذهب اليهم فى الكواليس . فالممثلون المساكين فى حاجة الى من يواسيهم فى محنتهم سحب الطفلة من يدها وسارا مع المؤلف بين صفوف الموتى . عندما وصلوا الى الكواليس كانت الممثلة تجفف دموعها والممثلان يحاولان تهدئتها والدموع تلمع فى عيونهما . كان فى الكواليس عدد آخر من الممثلين واقفين

فى وضع ثابت ، يبدو أحدهم وكانه يهمس فى أذن إحدى الممثلات ، والبعض يطل برأسه نحو خشبة المسرح . وممثل آخر مطرق للأرض . وممثل بدا متحفزا للظهور على خشبة المسرح ، ولكن لا حياة فيهم . أخذت الطفلة تدير بصرها فى انحاء المكان فى ذهول وكأنها فى كابوس رهيب وقد التصقت برفيقها . قال المؤلف موجها حديثه لرفيق الطفلة :

ـ هذه أعظم ممثلة فى الدولة كما تعلم . إنها معبودة الجماهير . هل كان من الممكن ان يتصور أحد أنها فى لحظة خاطفة تجد نفسها بلا جمهور ؟

قالت الممثلة :

ـ كان يخيل الى اننى امثل لأعيش . ولكن اتضح لى الآن أننى أعيش لأمثل . كانت قد لمعت ممثلة خشيت أن تنافسنى فكنت اغار منها . اتمنى الآن من أعماق قلبى أن تعود للحياة لتنافسنى . لم يبق من الممثلات سواى . ولكن ما قيمة الحياة فى عالم من الموتى ؟ إننى استمد وجودى من شعور الآخرين بى . فأنا بدونهم لا وجود لى . لم تعد لحياتى أى معنى .

قال الممثل الطويل :

ـ لقد فقدت الشهرة معناها .

قال الممثل القصير :

ـ ها هى ذى الدنيا ملك أيدينا ولكننا نتعذب لمن نمثل ؟ من سيرانا أو يسمعنا ؟

قال المؤلف :

ـ لم تعد لنا راحة الا فى الموت .

قال الممثل القصير :

ـ أجل . لماذا لا نموت كما مات الجمهور ؟

قالت الممثلة بصوت متهدج :

ـ اقتلوني وأريحوني من هذا العذاب اذا كانت في قلوبكم ذرة من الرحمة .

قال المؤلف وقد بدا شارد الذهن :

ـ خطرت لي الآن فكرة جديدة سأكتبها لتمثلوها .

قال رفيق الطفلة :

ـ لن يراها سوانا . أنا وهذه الطفلة .

قال المؤلف :

ـ ظللت أكثر من عشر سنوات أكتب المسرحيات والقصص والروايات دون أن يهتم بي أحد أو يشعر بوجودي اي إنسان . الناس بالنسبة لي كانوا في عداد الموتى . وعلى الرغم من ذلك واصلت الكتابة . وعندما قبلوا إحدى مسرحياتي . وفي الليلة الأولى لعرضها . مات الجمهور . مع أن ذهني يزدحم بأفكار أريد أن أكتبها . في لحظة من اللحظات تمنيت أن أكون أنا المؤلف الوحيد في الدولة . وهانذا أصبحت المؤلف الوحيد . لكن بلا جمهور .

قالت الطفلة وهي تغالب النعاس :

ـ أريد أن أنام . أنا تعبانة ولا يمكنني أن أنام وحدي في البيت .

نظرت الممثلة الى رفيق الطفلة وقالت :

ـ أليست ابنتك ؟

ـ لا . عثرت عليها في الطريق على غير هدى تبحث عن أمها التي حدث لها مثلما حدث للآخرين .

قالت الممثلة للطفلة :

ـ لن تنامي بمفردك يا حبيبتي . بل ستعيشين معنا أنا وزوجي . لم ننجب أطفالا وستكونين أنت ابنتنا .

قال رفيق الطفلة بدهشة :

ـ زوجك ؟ أين زوجك هذا ؟ ألا يزال حيا مثلنا ؟

أشارت الممثلة نحو الممثل الطويل قائلة :

ـ ها هو ذا زوجي . لا أجد ما يدعو لأن نعيش في منازل متباعدة . لماذا لا نعيش في بيت واحد لنأنس معا ويواسي بعضنا بعضا في هذه المحنة ؟ ألديكم مانع ؟

قال رفيق الطفلة :

ـ لا مانع لدي .

وقال الممثل القصير :

ـ هذا شيء طبيعي .

قالت الممثلة :

ـ إننا نعيش في فيلا كبيرة لأضعاف عددكم . وستأنس بهذه الطفلة الجميلة .

اتسعت سيارة الممثلة للجميع . جلس زوجها عجلة القيادة وانطلقت السيارة نحو الفيلا وقد جلست الطفلة على فخذي الممثلة ثم غلبها النوم فنامت . كانت السيارات تكاد تحتل جميع مساحات الشوارع الرئيسية فاضطر قائد السيارة الى السير في شوارع جانبية . واستخدم آلة التنبيه عندما شاهد عدة أشخاص يعترضون طريق السيارة فضحكت الممثلة وقالت :

ـ هل تنتظر من الموتى أن يفسحوا لك الطريق ؟

قال زوجها وهو شارد الذهن :

- فعلت ذلك بحكم العادة . ولا تنسى اننا كنا نصادف عديدا من الاحياء لا يختلفون كثيرا عن هؤلاء الموتى فى عدم الاحساس وعدم الاستجابة .

ادار الزوج مفتاح الباب وفتح باب الفيلا وضغط على زر النور فبدا البهو رائعا تتناثر فى انحائه الكراسى والأرائك الفاخرة والتحف الثمينة . كما لاحظ الضيوف وجود رجل أسمر طويل نحيل واقفا بجوار السلم الخشبى المؤدى الى الدور العلوى مرتديا قفطانا ابيض وحول وسطه حزام أحمر . إنه أحد الخدم وقد تحول الى تمثال كما حدث لباقى الخدم وقفت الطفلة نصف نائمة تنظر الى ما حولها فى ذهول . ثم جلس رفيق الطفلة على كنبة وأجلس الطفلة بجواره . كما جلس زوج الممثلة وزميله الممثل . اما الممثلة فقد صعدت الى الدور العلوى لتعد أماكن النوم لضيوفها . وأسندت الطفلة رأسها على كتف رفيقها واستأنفت النوم .

قال الممثل القصير :

- لماذا لم ينقطع التيار الكهربائى ؟

قال رفيق الطفلة :

- ستظل الآلات تدور وتولد الكهرباء حتى ينتهى الوقود ما دات لم يوقفها أحد .

قال الممثل القصير :

- ومتى سينتهى الوقود ؟

قال رفيق الطفلة :

- لست أدرى . قد ينتهى فى أية لحظة ويسود الظلام . ولا بد بعد ذلك ان نستخدم الشموع

قال الممثل القصير :

- شيء عجيب . بالمدينة الاف المساكن ومع ذلك تركناها وجئنا لنعيش فى منزل واحد .

قال رفيق الطفلة :

- لو عشت بمفردى فى اى منزل فى هذا السكون المطبق محاطا بملايين الموتى فلا بد ان أصاب بالجنون . إنه سكون الموت الذى يشيع الرجفة فى الجسد .

قال زوج الممثلة :

- ترى هل يوجد أحياء غيرنا ؟

قال رفيق الطفلة :

- لا أظن ان احدا غيرنا على قيد الحياة فى جميع انحاء الدنيا .

فى هذه اللحظة هبطت الممثلة السلم وطلبت من زوجها ان يحمل الطفلة النائمة الى الدور العلوى . وعندما هم بحملها فتحت عينيها وبدت كما لو انها لا ترى شيئا مما حولها . صعدت الممثلة السلم وخلفها زوجها حاملا الطفلة التى اخذت تهذى بكلام غير مفهوم .

وعندما وضعها على السرير اخذت تدير بصرها فى انحاء الغرفة فى فزع ثم قالت :

- انا خائفة . أريد ماما . لن أنام وحدى .

انحنت عليها الممثلة وقبلتها وقالت :

- لن تكونى وحدك يا حبيبتى بل ستكونين معى فى حضنى .

هبط زوج الممثلة السلم وبقيت هى مع الطفلة حتى نامت .

وبينما تهبط الممثلة آخر درجة من درجات السلم شحب

وجهها وأسرعت دقات قلبها وتسمرت فى مكانها وقالت :

- ما هذا ؟ هل سمعتم شيئا ؟

قال الممثل القصير :

- يخيل الى اننى سمعت طرقا على الباب .

قال زوج الممثلة :

- هذا غير معقول . الموتى لا يطرقون الأبواب . هيا معا نفتح الباب .

ساروا جميعا ببطء نحو الباب وأنصتوا . عند ذلك رن جرس الباب . فانتفضت الممثلة وكأنها سمعت صوت انفجار مروع . فتح زوجها الباب بحرص شديد وأطل منه فرأى رجلا ضامر الجسم يلبس نظارة . يبدو عليه الارهاق الشديد وفى يده حقيبة . قال :

- منذ الصباح الباكر وأنا أجول فى شوارع المدينة وأزقتها فلا أجد سوى موتى ولقد لاحظت ضوءا انبعث من إحدى نوافذ الطابق العلوى لمنزلكم بعد أن كانت مظلمة .. وشاهدت شخصا يتحرك خلف النافذة . فأيقنت أن بالمنزل أحد الأحياء . الوحدة تكاد تقتلنى وتسلبنى عقلى .

ظل الزوج محملقا فى وجه هذا الرجل الغريب بضع لحظات . وفى هذه الأثناء اقترب الجميع من الباب واشرأبوا بأعناقهم لرؤيته . وبعد أن التزم الجميع الصمت بضع ثوان قال الرجل الغريب :

- هل تسمحون لى بالدخول ؟ أنا بصراحة خائف .

قال له الزوج :

- تفضل بالدخول .

دخل الرجل وطلب منه زوج الممثلة أن يجلس . فجلس واضعا حقيبته فوق فخذيه . كان شاحب الوجه يغمز بعينه اليمنى من آن لآخر بحركة لا إرادية . جلس الجميع وظلت كل العيون مصوبة نحوه . قال الرجل :

- ماذا حدث للدنيا ؟

قال زوج الممثلة :

- أنت مسكين مثلنا . لم تمت .

قال الرجل بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

- أجل . لم أمت . ليتنى مت كما مات الجميع . أنا خبير بعلاج الأحياء ولكننى لا أستطيع إحياء الموتى .

قالت الممثلة :

- هل أنت طبيب ؟

- أنا أستاذ بكلية الطب .

قالت الممثلة :

- وهل .. هل حدث لأفراد أسرتك مثلما حدث لباقى الناس ؟

- أنا أعيش بمفردى فى شقتى بعد وفاة زوجتى وسفر ابنى الوحيد فى بعثة للخارج يساعدنى فى منزلى خادم وطباخ . يحضران فى الصباح ويغادران المنزل فى المساء . بعد أن غادرا المنزل ليلة أمس ظللت أقرأ حتى شعرت برغبة فى النوم . وفى الصباح لم تصدق عيناى ذلك الهول الذى حدث . أخذت حقيبتى وركبت سيارتى متجها نحو الكلية . وبعد مسافة قصيرة وجدت السيارات تسد الطريق وقد توقفت عن الحركة فتعذر على شق طريقى بين السيارات . فتركت سيارتى وسرت على قدمى حتى وصلت إلى الكلية لم أجد من الأحياء غيرى طوال الطريق وفى

الكلية . صرت أجوب الشوارع على غير هدى فلم أجد سوى الموتى فى كل مكان . انا فى شوق ولهفة لعلاج أى مريض . هل تسمحون لى بالكشف عليكم . فلقد يسعدنى الحظ وأكتشف فيكم بعض الأمراض ؟

قال رفيق الطفلة :

ـ لسنا فى حاجة الى علاج . صحتنا جميعا جيدة لسوء الحظ . مشكلتنا الآن ليست الحياة ، بل الموت .

قال الطبيب وقد اطرق نحو الأرض فى حزن :

ـ خسارة . أتمنى من صميم قلبى أن تمرضوا لأعالجكم . على أية حال أحمد الله اذ وفقنى الى العثور على بعض الاحياء . كنت على وشك الجنون . وجودكم أنقذ عقلى من الضياع .

قال زوج الممثلة :

ـ يمكنك أن تعيش معنا هنا . فنحن فى حاجة اليك كحاجتك الينا .

ابتسم الطبيب وقال وكأنه غير مصدق :

ـ هل توافقون على بقائى معكم ؟ !

قال زوج الممثلة :

ـ بكل سرور لا داعى لأن نعيش فى منازل متفرقة ونقاسى جميعا من الوحدة .

قال رفيق الطفلة موجها حديثه الى الممثلين والمؤلف :

ـ لقد ضمنتم الآن متفرجا سيواظب على مشاهدة مسرحيتكم . أصبح جمهوركم ثلاثة بدلا من اثنين .

قال الممثل القصير وفى صوته رنة حزن :

ـ ثلاثة لا يزيدون كثيرا عن اثنين .

قال زوج الممثلة :

ـ نسينا أن نعرفك بأنفسنا

قال الطبيب محركا بصره نحو الممثلين الثلاثة :

ـ أنتم من أشهر الممثلين . وهل يوجد من لا يعرفكم ؟

ثم نظر الى رفيق الطفلة والى المؤلف وقال :

ـ أنتما اللذان لم يسبق لى التشرف بمعرفتكما .

عرفه رفيق الطفلة بنفسه وأشار نحو المؤلف قائلا إنه مؤلف المسرحية . كان المؤلف شارد الفكر أثناء هذا الحوار ولكنه انتفض بغتة وقال : خطرت لى الآن فكرة قصة جديدة .

نظر الجميع الى المؤلف فى دهشة . وقال رفيق الطفلة وفى عينه نظرة سخرية : قص علينا موضوعها .

قال المؤلف بعد أن أشعل سيجارة وأخذ منها نفسا ونفث الدخان من أنفه :

ـ شخص موسيقى موهوب . وجد نفسه فى مدينة صغيرة لا يعرفها . وظل يعزف موسيقاه الرائعة دون أن يجد من يتذوقها أو يعجب بها من أهل المدينة . فاعتزل الناس وانطوى على نفسه يقاسى من وطأة الاهمال وعدم التقدير . وعند مغادرته للمدينة اكتشف أن جميع من فيها صم لا يسمعون .

قالت الممثلة بحماس :

ـ فكرة لا بأس بها . هل ستصوغها فى مسرحية ؟

قال المؤلف : أجل .

قال زوج الممثلة :

ـ يخيل الى أن عدد الممثلين اللازمين لهذه المسرحية غير متوافر الآن . أنسيت أن الممثلين الأحياء ثلاثة فقط ؟

قال المؤلف وقد أطرق للأرض واضعا رأسه بين كتفيه :

ـ أجل : الممثلون الأحياء ثلاثة ، والمتفرجون ثلاثة . لم يعد لحياتى معنى . ليتنى أموت .

قالت الممثلة :

ـ اسمع يا دكتور ، لقد كرهنا الحياة فى عالم من الموتى . فهل ترحمنا وتريحنا من هذه الحياة بطريقة إنسانية لا تشعرنا بالألم ؟ هذه أمنيتنا الآن .

قال الطبيب وهو يحك جبهته بيده .

ـ أمنيتك أنت أم أمنية الجميع ؟

قال رفيق الطفلة :

ـ أمنيتنا جميعا .

أشعل الطبيب غليونه وأخذ بضعة أنفاس . أطرق نحو الأرض مفكرا ، ثم قال :

ـ هذه مسألة خطيرة ينبغى أن أفكر فيها بعمق حتى أموت مرتاح الضمير ، إذ إننى لو قتلتكم فسوف أقتل نفسى ، فلن أحتمل الحياة بدونكم ، أمهلونى بضعة أيام لأفكر فى هذا الأمر فليس هناك ما يدعو للعجلة .

فى اليوم التالى ذهب الجميع للمسرح وأعاد الممثلون تمثيل المشهد الأول أمام الجمهور الذى ازداد واحدا بوجود الطبيب ، ثم عادوا للمنزل الذى كانوا فيه . قالت الممثلة :

ـ هل فكرت يا دكتور ووافقت على قتلنا جميعا بدون ألم لتريحنا من مرارة هذه الحياة ؟

أطال الطبيب النظر الى الممثلة ، ثم أطرق للأرض ولزم الصمت .

وأخذ يبعث بشاربه الكثيف الذى يشيع فيه البياض . قالت الممثلة :

ـ لست أدرى لماذا عشنا نحن ومات الآخرون ؟ ترى هل يدل هذا على أننا أفضل من الذين ماتوا ؟

قال الطبيب بعد لحظة تفكير :

ـ يخيل الى أن العكس هو الصحيح . إن بقاءنا على قيد الحياة فى عالم من الموتى نوع من العقاب الشديد . لا بد أننا جميعا اقترفنا ذنبا نستحق أن نعاقب من أجله هذا العقاب البشع .

أطرق الجميع للأرض ولزموا الصمت . قال رفيق الطفلة :

ـ أتظن أن بقاءنا أحياء نوع من العقاب ؟

قال الطبيب :

ـ بكل تأكيد . يكفى أنكم أصبحتم تفضلون الموت على الحياة .

قالت المؤلف .

ـ أجل . ما دمنا نشعر بالعذاب فلا بد أنه عقاب .

قال رفيق الطفلة :

ـ إذا كان الأمر كذلك ، فما ذنب هذه الطفلة المسكينة ؟

قال الطبيب موجها حديثه للطفلة :

ـ ألم يحدث لك يا حبيبتى فى لحظة من اللحظات أن تمنيت موت أحد ، أو موت جميع الناس ؟

قالت الطفلة ناظرة للأرض وقد احمرت وجنتاها :

ـ مرة واحدة .

قال الطبيب :

ـ كيف حدث هذا ؟

قالت الطفلة وهى لا تزال مطرقة للأرض تعبث بأصابعها فى حركة عصبية :

- كنت مع ماما فى دكان كبير ملىء بلعب الأطفال . وتمنيت أن ... أن يخلو المحل من جميع الناس لتصبح جميع اللعب ملكى أنا وحدى أختار منها ما يعجبنى دون أن تدفع ماما ثمنها .

سحب الطبيب عدة أنفاس من الغليون ثم قال :

- لا بد أننا جميعا قد طاف بأذهاننا مثل هذا الشعور

ثم ابتسم ابتسامة كاذبة وأخذ يضرب كفا بكف . وانتفض واقفا . وسار يذرع البهو جيئة وذهابا . نظرت إليه الطفلة فى رعب وشحب وجهها . وظننت أنها ربما تكون قد نطقت بكلمات ما كان ينبغى أن تقولها . ضرب الطبيب كفا بكف وهو لا يزال يذرع البهو وجميع العيون مصوبة نحوه ثم قال :

- كنت أغار من كل طبيب فى مثل تخصصى يحصل على بعض الشهرة . حتى تلاميذى النبغاء لم يسلموا من غيرتى الحمقاء مع أننى لم أعد فى حاجة الى مزيد من المال هاأنذا الآن الطبيب الوحيد فى الدنيا . يا فرحتى

فى الليلة التالية . فى أثناء تناولهم طعام العشاء . هبت الممثلة واقفة وقالت :

- أريد الذهاب الى المسرح . أشعر برغبة قوية تدفعنى للوقوف على خشبة المسرح ثم التفتت نحو الطبيب وقالت :

- ألم تصل بعد الى قرار يا دكتور فى أمر موتنا ؟

- لا . لم أصل الى قرار حتى الآن .

- أتوسل اليك يا دكتور أن تجعل هذه آخر ليلة لنا .

ثم أردفت قائلة بصوت مختنق بالبكاء :

- هيا الى المسرح لتشاهدوا التمثيل . لآخر مرة .

جلس الطبيب على أحد الكراسى الخلفية الخالية فى المسرح

وعلى يمينه جلس المؤلف وعلى يساره الطفلة ورفيقها . ثم بدأ التمثيل . مال رفيق الطفلة نحو الطبيب وهمس فى أذنه قائلا :

- لقد أصبحنا نحن جمهورهم ولم يعد يشعر بوجودهم سوانا . وعلى الرغم من ذلك فإنهم يصرون على مواصلة التمثيل بمثل هذا الحماس حتى آخر رمق فى حياتهم .

تململ مؤلف المسرحية وقال :

- ليس من اللائق أن يتحدثوا فى أثناء التمثيل . إلزموا الصمت .

ساد الصمت حتى انتهى المشهد . وعند ذلك صاح الممثل القصير قائلا :

- لماذا لا تصفقون ؟ نريد سماع تصفيق .

انبعث صوت تصفيق خافت . فجلس الممثلون على حافة المسرح وقد بدا عليهم الحزن العميق قالت الطفلة لرفيقها .

- أنا قرفت من هذا التمثيل . أريد الذهاب الى دكان اللعب لأرى ماما .

- ستجدينها كما رأيتها . واقفة ممسكة بالدمية فى يدها .

- أريد أن أراها .

سحبها من يدها وتسلل خارجا من المسرح واتجها نحو المحل الواقفة أمها فيه . كانت الأم فى الوضع نفسه كما شاهداها أول مرة . قال :

- ها أنت ذى قد رأيت أمك واطمأننت عليها . هيا بنا نعود الى المسرح .

- لا لن أعود للمسرح . سأظل هنا بجوارها ولن أتركها أبدا

غمرت الطفلة يد أمها بالقبلات وصاحت قائلة

- ردى على يا ماما ، لا تتركينى وحدى .

قال رفيقها بصبر نافد :

- لن ترد عليك ، هيا بنا .

انبعث من عينى الطفلة بريق عجيب . احتضنت امها وأخذت تهزها بكل قوتها صائحة بأعلى صوتها وكأنها أسد يزأر :

- ردى على يا ماما . ردى على . أنا أتعذب . أنا خائفة . أنا تعبت .

فى هذه اللحظة دبت الحياة فى الأم كما دبت الحياة فى اللحظة نفسها فى الفتاة الجالسة خلف عداد النقود وفى جميع من فى المحل دهشت الأم عندما رأت ابنتها فى هذا المكان . فقالت لها فى لهفة

- لماذا تركت المنزل يا حبيبتى ؟ لماذا أتيت هنا ؟ ألم أحذرك من مغادرة المنزل فى أثناء غيابى ؟

صاحت الطفلة وكأنها تهذى وقد هزتها مفاجأة عودة الحياة لأمها ولباقى الموتى :

- ماما صحت ، ردت على . يا حبيبتى يا ماما . يا حبيبتى يا ماما .

قالت الأم بدهشة :

- صحوت ؟ ! وهل كنت نائمة ؟

- أنت لا تعلمين شيئا عما حدث يا ماما .

دفعت الأم ثمن الدمية وغادرت المحل مع ابنتها ، وظل رفيقها واقفا يدير بصره فى انحاء المكان فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه أو أذنيه ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

- شىء عجيب . صرخة طفلة أيقظت الدنيا ؟ !

خرج من المحل فوجد الشوارع عادت كما كانت بزحامها

وضوضائها . اتجه مسرعا نحو المسرح وشعر بنشوة عندما صدم كتفه أحد المارة . ولما هم بدخول المسرح طلب منه الرجل الواقف عند الباب إبراز التذكرة ، فاشترى تذكرة وهرول مسرعا .

عندما دخل المسرح وجد الممثلين يؤدون ادوارهم بحماس شديد . سمع ضوضاء تنبعث من المتفرجين تكاد تطغى على صوت الممثلين . رأى المؤلف جالسا فى المكان نفسه الذى كان جالسا فيه ، كان مطرقا للأرض واضعا راسه بين كفيه وبجواره بعض الكراسى الخالية كما كانت . جلس بجواره وربت على كتفه فانتفض المؤلف فى فزع ونظر اليه ثم اطرق للأرض .

- لقد دبت الحياة فى الموتى . جئت لأهنئك على ذلك انت والممثلين .

نظر اليه المؤلف وقال :

- دبت الحياة فى الموتى ؟

- أجل لقد صحا الجمهور وعادت الحياة كما كانت . الا ترى ؟ الا تسمع ؟

اطرق المؤلف للأرض ووضع راسه بين كفيه وقال :

- أرى ؟ أسمع ؟ أرى ماذا واسمع ماذا ؟

فى هذه اللحظة انتهى المشهد الأول وبدأت الستائر تقفل فى بطء . فأخذ رفيق الطفلة يصفق . قال المؤلف :

- لا احد يصفق غيرك . إنهم لم يسمعوا حرفا واحدا من المسرحية . لم يلاحظوا مجرد اقفال الستائر .

- ولكن الحياة دبت فى الجميع .

رفع المؤلف راسه ونظر اليه وقال :

- كلا ، إنهم ما زالوا موتى .

القطار



ينساب القطار داخل نفق طويل مظلم يبدو وكأنه بلا بداية وبلا نهاية جميع مصابيح القطار مطفأة ، أو قد يكون بلا مصابيح . ولذا فالركاب الذين يشغلون جميع مقاعد عرباته لا يميزون بعضهم عن طريق العين ، بل عن طريق الأذن الأصوات مختلطة لا يكاد الانسان يميز منها سوى بعض الكلمات .

سمع الركاب وقع أقدام تسير في ممر إحدى العربات . قال أحدهم في صوت رفيع يكاد يشبه صوت صياح الديك :

— هل أنت رئيس القطار ؟

رد عليه صوت يقول :

— أجل .

قال ذو الصوت الرفيع :

— من أي محطة قام هذا القطار ؟

قال رئيس القطار :

— لست أدري .

صوت آخر قوي :

— كيف لا تعلم محطة قيام القطارات وأنت رئيسه ؟ !

قال رئيس القطار :

— أنا مشغول بأشياء أخرى .

قال الصوت الرفيع :

— مثل ماذا ؟

قال رئيس القطار :

— التأكد من أن جميع الركاب دفعوا ثمن تذاكر الركوب

قال الصوت القوي :

— وهل تأكدت من ذلك ؟

قال رئيس القطار :

— لا ، لم أتأكد بعد .

قال صوت فتاة :

— ومتى ستتأكد ؟

— قال رئيس القطار :

— عندما يقف القطار فى محطة الوصل .
قال ذو الصوت القوى :
— وما هى محطة الوصول ؟ إلى أين نحن سائرون ؟
قال رئيس القطار :
— لا احد يدرى ، سنعرف ذلك عندما نصل إلى المدينة .
قالت الفتاة :
— عجيب أن تكون رئيس القطار ولا تعرف المكان الذى سنصل اليه .
قال رئيس القطار :
— هذه ليست مهمتى ، إنها مهمة الذين وضعوكم فى القطار .
قال ذو الصوت الرفيع :
— ومن الذى وضعنا فى هذا القطار ؟
قال رئيس القطار :
— لا شأن لى بذلك ، أنا لا أعلم من أين اتيتم .
قالت الفتاة :
— ولكن لنا الحق فى معرفة المكان الذى نحن ذاهبين اليه .
سمعوا وقع اقدام تبتعد . قال ذو الصوت الرفيع :
— لا اذكر أننى قطعت تذكرة أو دفعت أجر ركوبى فى هذا القطار ولا اذكر متى ركبته .
لم يسمعوا ردا فاستنتجوا أن رئيس الطار غادر تلك العربة ساد صمت . ازدادت سرعة القطار فاخذ يهتز هزا عنيفا . صرخ بعض الركاب . هدأ القطار من سرعته فساد الصمت من جديد وفجاة خرج القطار من النفق . ركز جميع الركاب أنظارهم نحو

النوافذ . رأوا أنوارا ساطعة لم تحتملها عيونهم التى اعتادت الظلام طوال الطريق فأغمضوا عيونهم . توقف القطار . اضطروا لفتح عيونهم . وجدوا الأضواء قد خفتت عن ذى قبل ثم اخذت تزداد تدريجا فظلت عيونهم مفتوحة تتأمل مبانى المحطة ومساكن المدينة التى وقف عندها القطار . أشرأبت الأعناق وبرزت الرءوس من نوافذ القطار لقراءة اسم المدينة . وجدوا لافته المحطة بيضاء خالية من الكتابة . رأوا رجلا فارع الطول يسير بين صفوف الركاب مرتديا بدلة صفراء . صاح الرجل قائلا :
— ماذا تنتظرون ؟ لقد توقف القطار فى محطة الوصول .
ادركوا من صوته انه رئيس القطار الذى سبق أن تبادلوا معه الحوار فى الظلام .
قالت الفتاة :
— هل من المفروض أن نهبط فى هذه المدينة ؟
قال رئيس القطار :
— لقد وصلتم الى المدينة فماذا بقاؤكم فى القطار ؟ لن يتحرك القطار بعد هذه المحطة .
أنتم الآن فى بداية الطريق . هيا أخرجوا من القطار .
قال ذو الصوت القوى :
— تقصد أننا فى نهاية الطريق .
قال رئيس القطار :
— نهاية الطريق هى البداية .
لم يفهم أحد شيئا وبدأوا يغادرون القطار . قال احد الركاب لرئيس القطار :

— ما أسم هذه المدينة ؟ أننا نهبط الى مدينة لا نعرف عنها شيئا ، حتى اسمها لانعرفه .

قال رئيس القطار بلا اكتراث :

— وكيف أعرف اسمها ولافتة المحطة لا توجد عليها أية كتابة ؟

شعر الجمع ببرد شديد وسرت فى أجسادهم قشعريرة جعلتهم يرتجفون . اكتشفوا أنهم شبه عرايا لايرتدون سوى ملابس العوم . أين كانوا ؟ هل جاءوا من إحدى مدن الشواطىء وخرجوا من البحر مسرعين ليلحقوا بالقطار ؟ لا احد يدرى .

عندما لاحظ رئيس القطار انهم يرتعدون من البرد أشار نحو أحد مبانى المحطة وصاح قائلا :

— أسرعوا إلى هذا المخزن وارتدوا أية ملابس تجدونها .

انطلقوا يعدون نحو المخزن الذى وجدوه مليئا بالملابس من كل شكل ونوع . بعض الملابس كانت لضباط وعساكر شرطة وضباط جيش . الى جانب ملابس عادية للرجال والنساء . بعضها أنيق وبعضها عادى والبعض مهلهل . أسرع كل منهم بارتداء ما وقعت عليه يده من ملابس ، فبدا البعض أنيقا والبعض فى ملابس تنبو عنها الأبصار . وفى غمار لهفتهم على ارتداء أى شىء يرد عنهم غائلة البرد اضطر بعض الرجال الى ارتداء ملابس نساء كما اضطر بعض النساء الى ارتداء ملابس رجال .

وقفوا عند باب المحطة المؤدى الى المدينة . رأوا فى ميدان المحطة فرقة موسيقية بدأت تعزف الحانا جميلة احتفالا بقدومهم . اصطف على جانبى باب المحطة عدد من الجنود . فتح الحارس باب المحطة وسمح لركاب القطار بدخول المدينة . كان الجنود يؤدون التحية لكل من يرتدى ملابس أنيقة ولا يعبأون بذوى الملابس القديمة أو المهلهلة .

وقف ركاب القطار حائرين لا يدرون إلى أين يذهبون فى مسارب هذه المدينة التى لا يعرفون عنها شيئا . تقدم نحوهم رجل طويل نحيل يرتدى حلة زرقاء ذات أزرار ذهبية وفى يده عصا قصيرة وقال مشيرا نحو أحد الشوارع الفسيحة التى تصطف على جانبيها الأشجار :

— كل من يرتدى ملابس أنيقة يتجه نحو هذا الشارع ويعدو بأقصى سرعته ويحتل أية فيلا أو أية شقة يجدها خالية ويزاول المهنة التى تؤهله لها الملابس التى يرتديها .

أسرع ذوو الملابس الأنيقة يعدون . حاول أحد ذوى الملابس القديمة العدو معهم فجذبه أحد الجنود واوقفه قائلا :

— لست منهم . الا ترى ملابسك المهلهلة؟

ثم التفت نحو ذوى الملابس القديمة واشار نحو زقاق قذر على جانبيه مساكن أيلة للسقوط وصاح قائلا :

— أسرعوا نحو هذا الزقاق واحتلوا الأماكن الخالية فيه وليمارس كل منكم المهنة التى تؤهله لها ملابسه .

اندفعوا نحو الزقاق . نجح بعضهم فى العثور على بعض الشقق المتواضعة الخالية وبقى عدد كبير منهم بلا مأوى ، وظل الذين لم يوفقوا فى العثور على مأوى حائرين لا يدرون ماذا يفعلون . اتجهوا نحو الرجل ذى الحلة الزرقاء وسأله أحدهم :

— لم نجد لنا مأوى .

قال الرجل :

— كانت المساكن الخالية أمامكم ، فلماذا لم تسرعوا باحتلالها ؟

قالت فتاة ترتدى ثوبا باليا يكشف عن بعض اجزاء جسمها :

— أسرعنا على قدر طاقتنا ولكنهم أزاحونا عن طريقهم بقوة وعنف. واستولوا على كل شيء ولا ندرى كيف سنعيش فى هذه المدينة .

قال الرجل :

— ليس هذا من شأنى ، تصرفوا .

كان الرجل ذو الصوت القوى يرتدى حلة فاخرة فعثر فى الشارع الواسع على فيلا أنيقة ذات حديقة رائعة . بعد نحو شهر ، عندما دخل غرفة نومه وجد فتاة جميلة جالسة على طرف السرير ترتدى قميص نوم شفافا ، سألها :

— ماذا تفعلين هنا ؟ إن هذا منزلى ، عثرت عليه بعد مجهود عنيف .

قالت مبتسمة :

— هو منزلى أنا أيضا .

عرف من صوتها أنها الفتاة التى تحدثت مع رئيس القطار فى أثناء الظلام . قال لها :

— من أين حصلت على هذا القميص ؟ لقد رأيتك عقب خروجك من المخزن ترتدين معطفا أنيقا .

— اشتريته . المعطف الذى كنت أرتديه أهلنى للحصول على وظيفة مرموقة حصلت منها على مرتب كبير .

قال الرجل :

— والبدلة الأنيقة التى عثرت عليها فى المخزن أهلتنى للحصول على وظيفة كبيرة ذات مرتب محترم .

قالت الفتاة وقد اضطجعت على السرير :

— الديك اعتراض أن نعيش معا فى منزل واحد ؟ إن منزلك جميل أعجبنى .

إنقض الرجل عليها وقبلها ثم قال :

— المنزل بدونك لا يساوى شيئا .

تعانقا طويلا ، ثم أطفأ النور وناما جنبا إلى جنب . قالت الفتاة :

— سنكون أسعد زوجين .

قال الرجل ذو الصوت القوى وهو يحتضنها :

— لن يكون فى المدينة أسعد منا ، وجودك فى منزلى سيشيع السعادة والبهجة فى كل ركن من أركانه .

ما كاد ينتهى من حديثه حتى سمعا جرس الباب . قام غاضبا يرغى ويزبد ويغمغم بكلام غير مفهوم . عندما فتح الباب أطل منه رجل ذو ثياب قذرة مهلهلة . قال له صاحب البيت :

— ماذا تريد ؟

قال الرجل ذو الثياب المهلهلة :

— لم تؤهلنى ملابسى للحصول على أى عمل أرتزق منه . أعطنى بعض المال أو كسرة من الخبز .

تذكر صاحب البيت ذو الصوت القوى أن ذلك الرجل ذا الصوت الرفيع هو الذى كان معه فى القطار . أعطاه بعض النقود وأقفل الباب ورجع الى سريره .

تمكن الرجل ذو الصوت القوى من جمع أموال طائلة لم يكن يعرف كيف ينفقها . كان يشترى كل ما تشتهيه نفسه أو نفس زوجته ولا يشعر أن نقوده قد نقص منها شيء ، بل كان كلما أسرف فى الشراء ازدادت أمواله .

بعد فترة أصبح لذلك الرجل ولدان . اكتشف أن عددا كبيرا من ركاب القطار تمكنوا من جمع ثروات هائلة بينما ظل البعض الآخر

يتضور جوعا ويتسول فى الشارع والأزقة .

ذات يوم بينما كان يهم بالانطلاق بسيارته الفاخرة اعترض طريقه رجل رقيق الحال ممزق الثياب . اتضح أنه احد مرافقيه فى رحلة القطار . طلب الرجل منه صدقة . قال له ذو الصوت القوى إنه فى حاجة إلى خادم . قبل الرجل على الفور أن يصبح خادما فى منزل ذى الصوت القوى .

بعد فترة قصيرة اختفت جميع البضائع والمجوهرات الثمينة من جوانب المدينة ، اشتراها سكان الشارع الأنيق ، ورزق الرجل ذو الصوت القوى بابنة ولدت كفيفة البصر . أصبحت تلك الابنة سوط عذاب يلهب جسده وجسد زوجته . تحولت الحياة فى الفيلا الأنيقة إلى جحيم لايطاق ، ثم ظهرت أعراض الاختلال العقلى على أحد ولديه ، ومرض الابن الثانى بشلل الاطفال .

ذات ليلة دق جرس الباب . فتح الخادم باب البيت فوجد أمامه الرجل ذا الصوت الرفيع وقد اصبح شبه عار . اقبل صاحب البيت ذو الصوت القوى ، ولما رأى ذلك المتسول طرده واغلق الباب فى وجهه مشيعا إياه باللعنات .

اصيبت الزوجة بالسل الرئوى . حزن زوجها حزنا شديدا وعرضها على أعظم أطباء المدينة . ذات يوم أعلن الراديو أن ركاب القطار مطلوبون للاجتماع فى قاعة المدينة . ذهب الجميع الى الاجتماع يرتدى بعضهم الملابس الأنيقة والبعض الآخر يرتدى الملابس البالية . انخرط الجميع فى بكاء عنيف . وقف رجل على المنصة يرتدى حلة زرقاء . سأهم عن سبب بكائهم . قالوا إنهم منذ حضورهم إلى هذه المدينة وهم فى شقاء وعذاب متواصل . ارتفع صوت أحد الرجال قائلا :

— لا اريد البقاء فى هذه المدينة ، إننى أتعذب عذابا فوق احتمالى . اريد الذهاب إلى القطار .

قال الرجل الواقف على المنصة :

— لك مطلق الحرية فى ركوب القطار ، إنه الآن فى المحطة .

انطلق الرجل نحو المحطة ليلحق بالقطار . قال الرجل الواقف على المنصة متفرسا فى وجوه الجماهير التى مازالت تبكى من فرط الحزن والشقاء :

— القطار ما يزال فى انتظار من يريد مغادرة هذه المدينة .

اسرع عدد من النساء والرجال نحو المحطة . ظل الباقى يئنون ويبكون قال الرجل ذو الحلة الزرقاء :

— وانتم . هل ترغبون فى البقاء أم فى السفر ؟

صاحوا وهم يجهشون بالبكاء :

— نريد البقاء .

— رغم العذاب الذى تقولون إنكم ترزحون تحت وطأته ؟

— أجل نريد البقاء فى المدينة رغم العذاب والشقاء الذى نعانيه .

انفض الاجتماع وذهب كل واحد الى منزله او مقر عمله أو الى عرض الطريق . حمل البريد ذات يوم الى الرجل ذى الصوت القوى خطابا يأمره بالتوجه إلى المحطة هو وزوجته لركوب القطار . وسوف تمر عليهم سيارة لتوصيلهم الى المحطة . قال الرجل لزوجته :

— ورد امر بذهابنا انا وانت لركوب القطار .

قالت الزوجة فى دهشة وفزع :

— والأولاد ؟ هل سنتركهم وحدهم ؟

قال الزوج :

— لابد لنا فى ذلك . لم يصدر الأمر بركوب الأطفال معنا .

قالت الزوجة :

— لا يمكننا تركهم بمفردهم . كيف يعيشون بدوننا ؟ من الذى يرعاهم ؟ وكيف تعيش ابنتنا الكفيفة المسكينة بلا مساعدة أو رعاية منى ؟

قال الزوج :

— لابد من تنفيذ الأمر . لا يد لنا فى ذلك .

جمع الزوج والزوجة كل ماالديهم من اموال وتحف ومجوهرات فى عدة صناديق . وطلبوا من الخادم ان يرعى الأطفال . اعتذر الخادم قائلا إنه هو ايضا ورد إليه أمر بركوب القطار .

تركوا الأطفال بالمنزل وأنزلوا الصناديق المليئة بالأموال ووقفوا أمام منزلهم فى انتظار السيارة التى ستنقلهم إلى المحطة .

اقبل سرب ضخم من اللوريات وقد حشر فيه عدد هائل من المسافرين ومعهم أمتعتهم . وصلوا الى ميدان المحطة فهبطوا من اللوريات ، وعندما هموا بدخول الباب المؤدى الى المحطة استوقفهم بعض الحرس وطلبوا منهم أن يخلعوا جميع الملابس ولا يبقوا على أجسادهم سوى ملابس الاستحمام التى كانوا يرتدونها عند قدومهم الى المدينة . خلعوا ملابسهم وهموا بدخول المحطة . بعضهم لا يحمل فى يديه شيئا والبعض يحمل حقائب تضم الأموال التى حصلوا عليها طوال مدة إقامتهم بالمدينة والتحف والبضائع التى اشتروها . اعترض طريقهم حارس البوابة قائلا :

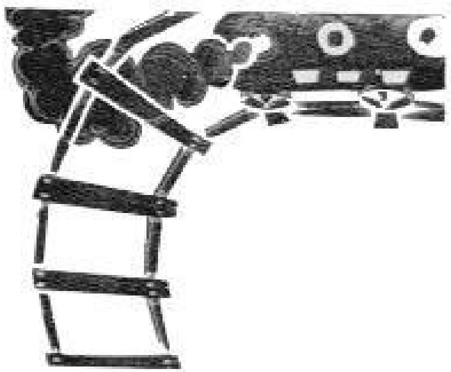
— لن يسمح لأحد يأخذ أى شىء لم يكن معه عند قدومه للمدينة .

تركت جميع الحقائب خارج أسوار المحطة ودخل جميع من كانوا

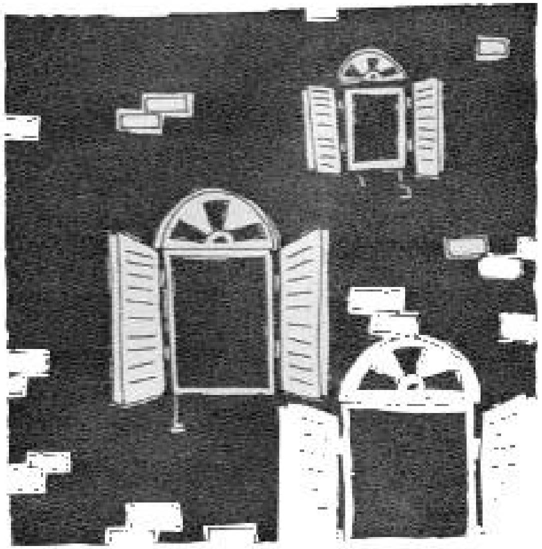
فى اللوريات وركبوا القطار . اكتشف الرجل ذو الصوت القوى أن الجالس بجواره هو الرجل ذو الصوت الرفيع الذى كان متسولا فى المدينة . كانت ملابس جميع الركاب متشابهة ، إنها ملابس العوم التى كانوا يرتدونها عند قدومهم للمدينة . بحث الرجل ذو الصوت القوى عن زوجته فوجدها جالسة بجوار الرجل الذى كان خادما فى منزلهم . دنت منه التفاتة من شباك القطار فرأى ابنته الكفيفة وولديه يبكون ويلوحون للقطار بأيديهم الصغيرة . كان فى ميدان المحطة حشد هائل يشترك فى وداع ركاب القطار وقد ارتفع صراخهم وعويلهم .

اطلقت فى المدينة زمارة الانذار فكان هذا ايذانا بتحرك القطار .

تحرك القطار وبعد بضعة امتار انساب داخل نفق مظلم ، وغاب عن الأنظار .



ليلة العاصفة



لم يكن يخطر على باله أنه فى هذه الليلة العاصفة سيرى أمه التى توفيت منذ عام . كانت سنه فى ذلك الوقت نحو اثنى عشر عاما عندما كان عائدا سيرا على الأقدام من المدينة الى قريته الصغيرة التى تبعد عن المدينة نحو ستة كيلومترات . وعلى جانبى الطريق تمتد حقول ينبعث منها عواء الذئاب وهو يخترق الظلام فى ليلة من ليالى يناير فيرتجف خوفا وبردا . تتراءى له أشباح مختلطة بصورة العروس والعريس وهما جالسان ، وضجة الموسيقى وأصوات المعازيم مازالت ترن فى أذنه . أخذ يلوم نفسه على استجابته لاغراء صديقه الذى طلب منه أن يحضر فرح أخته بعد انتهاء اليوم المدرسى ، فكان هذا سبب بقائه فى المدينة حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

بدا له الطريق طويلا لايريد أن ينتهى وكأنه يلتف حول الكرة الأرضية . فى كل لحظة يتوقع خروج ذئب من الحقول يعترض طريقه ويتصور نفسه بين أنياب الذئاب .

لم يكن الجو فى ذلك اليوم ينبىء بعاصفة . ولكن فى فترة قصيرة تلبدت السماء بالغيوم . وبدأ الرعد يهدر والأمطار تهطل والبرق يلمع فينير الطريق والحقول لحظات خاطفة . وكأن السماء تلتقط صورة لهذا المكان . ثم يعود الظلام أحلك مما كان .

اشتد خوف حمدى فوجد نفسه يبكى . أخذ يبحث حوله عن مكان يلوذ به هربا من المطر والبرق . واذا به يرى بالقرب من الطريق الزراعى بيتا من طابقين لايذكر أنه رآه من قبل على الرغم

ـه مروره فى هذا الطريق مئات المرات . يبدو غريبا غير مألوف ـو يشبه المنازل التى يرى صورتها فى كتاب المطالعة الانجليزية ـعث من نوافذه ضوء أصفر . خيل اليه أن البيت يبدو هو ايضـ ـنفا لوجوده منعزلا فى هذا المكان الموحش . ورأى أمام البيت ـجرة ضخمة شامخة وكأنها تتحدى العاصفة العاتية وتتو حراسة المنزل .

أسرع الى ذلك البيت وطرق بابه . بعد نحو دقيقة فتح الباب وأطلت منه امرأة ترتدى ثوبا طويلا ابيض يكاد يلمس الأرض وفى يدها مصباح رفعته الى أعلى لترى وجه هذا الطارق . ألقى بنفسه فى أحضان تلك المرأة قائلا :

— ماما ؟ ! هل تعيشين هنا وحدك ونحن نعتقد أنك . . . لماذا تركتنا ؟

قالت المرأة وقد بدا أنها لاتعرفه :

— ادخل ، أنت ترتعش من البرد .

دخل خائفا يتلفت متأملا محتويات ذلك البيت العجيب . فى البهو توجد مدفأة يرقص فيها اللهب فيبدو جو البيت مريحا دافئا لايمت بأية صلة للجو البارد العابس فى الخارج .

— اجلس وسأذهب لأعمل لك فنجانا من الشاى يدفئك .

جلس وعيناه مازالتا تدوران فى أنحاء البهو . إنه لم ير منزلا كهذا فى حياته . وقف واستمر يستكشف المكان . لفتت نظره صورة فى اطار أنيق موضوعة على حافة المدفأة . لم يصدق عينيه ، إنها صورته ولكنها ليست صورته فى هذه السن ، بل فى نحو العشرين من عمره ، ملامحه تشبه ملامحه تمام الشبه على الرغم من فارق السن . ولايمكن أن تكون صورة انسان غيره . لم ير المرأة عندما

عادت تحمل صينية الشاى اذ كان مستغرقا فى تأمل الصورة . سمع صوت الصينية وهى توضع على المنضدة فانتفض خوفا والتفت الى المرأة وقال وفى صوته دهشة :

— هذه صورتى !

اكتسى وجه المرأة بالحزن وقالت :

— انها صورة ابنى حمدى !

— أنا حمدى ، وهذه صورتى .

لمعت عيناها وبدا وكأنهما تنظران الى لاشىء وقالت :

— حمدى ابنى مات .

— ولكننى لم أمت . هاأنذا أمامك .

قالت وكأنها لم تسمع حديثه :

— مات حمدى ابنى يوم عيد ميلاده الثلاثين . كانت الساعة تدق . دقت اثنتى عشرة دقة . مازالت دقاتها فى تلك الليلة ترن فى أذنى . أذكرها وكأنها بالأمس . وبعد آخر دقة سقط ميتا .

ودمعت عيناها فمسحت دموعها بطرف إصبعها .

— اشرب الشاى قبل أن يبرد .

أخذ يحتسى الشاى شارد اللب . أخرجه من ذهوله صوت المرأة عندما قالت :

— هل شعرت بالدفء الآن ؟

— نعم . أشعر الآن بالدفء .

— ولماذا ترتعد اذن ؟

— أنا خائف .

— مم تخاف ؟ لايوجد هنا مايخيف . ملابسك مبتلة . سأجففها لك . تعال هنا جنب المدفأة .

جلس جنب المفاة . خلعت معطفه وأخذته لتجففه . بجوار السلم الداخلى المصنوع من الخشب الفاخر والذى يؤدى الى الدور العلوى . رأى صورة أخرى . إنها صورة أخته ليلى بملابس الزفاف وبجوارها ضابط فى الجيش . أقبلت المرأة وفى يدها المعطف . هم بارتدائه ولكنها قالت :

— لا تلبسه الآن . البسه عندما تخرج .

تعجب من تمكنها من تجفيف المعطف فى هذه الفترة الوجيزة وضع المعطف على حافة الكرسى واستمر يتأمل صورة أخته ليلى التى تصغره بخمسة أعوام . قال بعد تردد :

— هذه صورة أختى . كيف حصلت على هذه صورة كهذه ومن هذا الواقف معها ؟

— هذه صورة زفاف ابنتى ليلى . والواقف بجوارها هو عريسها .

— ولكن ليلى أختى مازالت فى السابعة من عمرها .

قالت وكأنها لم تسمع حديثه :

— كان زوجها ضابطا فى الجيش . ماتت يوم زفافها . ذكرتنى بأشياء كثيرة حزينة لم أكن أحب أن أتذكرها .

— أنا متأسف . لم أكن أقصد أن أسبب لك أى حزن . وماذا حدث لابنك حمدى قبل أن يموت ؟

— كان ترتيبه الأول على جميع تلاميذ القطر المصرى فى الشهادة الثانوية .

نسى الموت وهزته الفرحة . فقال بدهشة :

— الأول على القطر المصرى ؟ !

— أجل . ونشرت صورته فى جميع الصحف .

— وماذا حدث غير ذلك ؟

— فى عيد ميلاده الخامس والعشرين انقلب به القطار ولكنه نجا . يومها قلت ان عمره طويل . ولكن عمره لم يطل . لم أكن أتصور انه بعد خمس سنوات من هذا الحادث ستنتهى حياته على غير انتظار .

— وكيف مات ؟

— كان يجرى عملية جراحية لطفل صغير . وعندما سقط ميتا . . مات الطفل .

— كان طبيبا إذن .

— كان جراحا . وكان سعيدا بقرب حصوله على درجة مدرس بكلية الطب . ولكن القدر لم يمهله .

— وكيف ماتت ليلى ؟

أشارت نحو الصورة وقالت

— انظر كم كانت جميلة ؟ فى الثامنة من عمرها وقعت فى الساقية وكانت على وشك الغرق ولكنهم انقذوها . وفى نحو التاسعة سقطت وهى تهبط السلم وكسرت عظمة من عظامها بأسفل العنق ثم شفيت . وفى نحو العشرين خطبها ضابط فى الجيش وسيم . وبعد اتمام الزفاف والتقاط هذه الصورة استقلا معا السيارة . ولاأذكر ماذا كانت وجهتهما . وفى الطريق اصطدمت السيارة ولا أذكر كيف اصطدمت . هذا الحادث يبدو وكأن الضباب يلتف به فى ذاكرتى فلا أتذكر تفاصيله جيدا . ولكن الذى أذكره أنها هى وعريسها توفيا على الفور فى ذلك الحادث .

شعر برعب شديد يفوق خوفه من البرق والظلام والذئاب . وفكر فى الهرب من ذلك البيت . نظر الى ساعته ثم وضعها على أذنه

فلم يسمع دقاتها . قال :

— ساعتي توقفت . كم الساعة الآن ؟

— لست أدرى . لا توجد ساعة فى هذا البيت .

قام وشرع فى ارتداء معطفه فسألته :

— الى أين أنت ذاهب ؟

— يخيل الى أن العاصفة هدأت . سأعود الى بيتى .

اعترضت طريقه قائلة فى حزم :

لا ، لم أتركك تسير فى هذا الجو العاصف . ستبيت عندى هنا حتى الصباح .

— لايمكننى أن أبيت خارج منزلى .

— انت هنا فى بيتك . لست غريبا عنه .

— لا . بيتى فى البر الآخر من الترعة حيث يوجد ابى وأختى ليلى .

— سأذهب لأحضر لك ملابس النوم .

اختفت داخل المنزل وجلس مذهولا لايدرى ماذا يفعل . ثم عادت ومعها ملابس للنوم .

من أين أحضرت هذه الملابس ؟ انها تشبه ملابس نومى التى فى بيتى ، وما دامت تعيشين وحيدة فى هذا البيت . فلماذا تحتفظين فيه بمثل هذه الملابس ؟ !

— فيم تفكر ؟ تعال معى ؟

سحبته من يده برفق واتجهت به داخل المنزل ، وفتحت غرفة يضيئها مصباح قوى بها سرير مفروش فرشا نظيفا ودولاب وكرسى ومنضدة . وقالت :

— ستبيت فى هذه الغرفة وتؤنس وحدتى الليلة .

— ولماذا لاتحضرين لنعيش معا كما كنا ؟ لماذا تركتنا وتعيشين هنا وحدك ؟

لم تجب على تساؤله . تركت الغرفة وأقفلت الباب ووجد نفسه بمفرده فازداد شعوره بالخوف . على جدار الحجرة وجد صورتين لآخرين ، صورة له فى نحو العاشرة وصورة لأخته ليلى فى نحو الخامسة ، وعلى جدار آخر وجد نتيجة عليها تاريخ اليوم ، إنه الرابع والعشرون من شهر يناير عام ١٩٨٠ . أخذ يقلب فى أوراق النتيجة وتحقق من صحة هذه الأرقام .

شىء عجيب ! عام ١٩٨٠ ونحن الآن فى عام ١٩٥٣ ، هل هذا معقول ، لابد أن أستفسر من أمى عن معنى هذه الألغاز . أنا خائف . إن عينى أختى ليلى فى الصورة تنظران نحوى أينما سرت . لن يغمض لى جفن حتى الصباح لو بقيت بهذه الغرفة .

فتح باب الحجرة فتحة ضيقة وأطل منها . فدخل الظلام من الباب وغمر الغرفة . دفعه الخوف لأن يصرخ بأعلى صوته قائلا :

— ماما . ماما . ماما .

وأخذ يسير فى أنحاء البيت المظلم صائحا :

— ماما . ماما .

لم يسمع استجابة لصياحه . كان مستوى الجزء من البيت الذى فيه غرفة نومه أعلى من مستوى البهو بمقدار سلمتين . عندما فتح عينيه وجد نفسه فى سريره بمنزله وبجواره أبوه وأخته ورجل غريب لايعرفه وطفلة فى مثل سنه تدعى سامية كان يلعب معها دائما ويذاكر دروسه معها أحيانا ، والدادة التى بقيت معهم بعد وفاة الأم . قال الرجل الغريب :

— الحمد لله . بدأ يفيق .

قال حمدى :

— أين أنا ؟

قال الأب :

— فى بيتك ظللنا نبحث عنك فى كل مكان ووجدناك ملقى فى الطين على حافة الطريق جنب أحد الحقول والمطر ينهمر فوقك .

قال حمدى :

— أنا كنت فى بيت آخر على الطريق الزراعى وجدت فيه ماما . ماما لم تمت ، إنها تعيش وحدها هناك .

انخرط فى البكاء ، فبكت الطفلة سامية . قال موجها حديثه لأبيه :

— لماذا تركت ماما تعيش هناك وحدها ؟

أطرق الأب حزينا ، ووضع الطبيب الترمومتر فى فم حمدى . وجد حرارته مرتفعة . فحص تجويف الفم والحلق ، وانحنى ، وبدأ ينصت الى الأصوات التى ينقلها المسماع من منطقة صدر حمدى ، ثم قال مخاطبا الأب :

— إنه يهذى من تأثير ارتفاع الحرارة ، فهو مصاب بالتهاب رئوى ، وتلزمه راحة تامة وعناية شديدة ومواظبة على تناول الأدوية فى المواعيد المذكورة فى تذكرة العلاج .

قال حمدى :

— أين ماما ؟ أريد أن أرى ماما .

قال الأب :

— عندما وجدناك ملقى فى الطين كنت تهذى وتردد كلمة « ماما » . . .

— لم أكن أهذى . لقد رأيت وسمعت أشياء كثيرة فى هذا البيت الذى تعيش فيه ماما .

قال الطبيب : لابد أنك كنت تحلم .

قال باصرار :

— لم أكن أحلم ، هل يحلم الانسان وهو سائر فى الطريق ؟ لقد رأيت ماما . حدثتها وحدثتنى . إنها تعيش فى بيت لاتوجد حوله بيوت وأمامه شجرة كبيرة .

كان أول مافعله أبوه عندما تماثل حمدى للشفاء أن لفه فى بطانية وحمله فى العربة التى يجرها حصان هزيل واتجه فى الطريق الزراعى نحو المكان الذى ذكره حمدى ليثبت له عدم وجود ذلك البيت ، وعندما وصل الى البقعة التى وصفها حمدى ، أمر الأب سائق العربة بالتوقف . نظر حمدى فلم يجد أثرا للمنزل ، ولكنه وجد الشجرة كما رآها تماما فى تلك الليلة ، وفى المكان الذى كان البيت يشغله وجد ساقية تدور وبجوارها فلاح شاب ينفخ فى ناى فتخرج منه انغام حزينة . قال الأب :

— ها هو ذا الطريق ولا يوجد أى أثر للبيت الذى ذكرته . اتاكدت الآن من أن كل ما رايته فى تلك الليلة لم يكن سوى أوهام ؟

— لا ، لم يكن وهما ، لقد رأيت البيت وجلست فيه ورأيت ماما ، وهذه الشجرة هى نفسها التى رأيتها أمام البيت .

لم يشأ حمدى أن يذكر شيئا عما رآه وسمعه فى ذلك البيت ليلة العاصفة ، بل آثر أن يطويه فى أعماق نفسه ، حتى سامية التى لا يخفى عنها شيئا لم يبح لها بذلك السر الرهيب .

مع مرور الأيام كاد ينسى ما حدث ، ولكن بعد نحو عام ، فى عصر أحد الأيام ، كان جالسا فى بيته وسمع ضجة تقترب . أسرع بالخروج فرأى عددا من الفلاحين مقبلين ، وقد حمل أحدهم أخته ليلى التى كانت تبكى وقد بلل الماء ثيابها . سأل حمدى بلهفة :

— مالها ليلى ؟

قال الفلاح الذى يحملها :

— وقعت فى الساقية وأخرجناها ، كانت ستغرق .

أعاد هذا الحادث الى ذاكرة حمدى كل ما حدث فى ليلة العاصفة بكل تفاصيله ، ورن فى أذنه صوت امه عندما قالت :

— فى الثامنة من عمرها وقعت فى ساقية ، وكانت على وشك الغرق ولكنهم انقذوها .

أصبح عصبى المزاج ، يخشى مرور الأيام ، تكثر فى أحلامه الكوابيس ، وبدأ يشعر بعطف شديد على أخته ليلى محاولا اسعادها على قدر طاقته . أما سامية فلقد بدا يتجنب لقاءها ولم تستطع الاهتداء الى مبرر معقول لهذا الجفاء الذى لم تكن تألفه منه ، فانطوت على نفسها واعتكفت فى بيتها وتجنبت زيارة منزله على قدر المستطاع ، إذ شعرت بأنه أصبح انسانا آخر غير الذى عرفته . أخذ يبعد عن ذهنه فكرة الزواج لاعتقاده أن حياته لن تمتد لأكثر من ثلاثين عاما ، وهو لايريد لسامية ولا لغيرها ان تترمل فى هذه السن .

بعد نحو عام كانت ليلى تطارد اوزة فوق السلم ، فزلت قدمها وتدحرجت بضع درجات وكسرت عظمة الترقوة ، واستغرق التئامها نحو ستة أسابيع . ازداد اكتئاب حمدى وأمعن فى عزلته وأصبح دائم التفكير فى الموت .

سيطرت على سامية فكرة تحدى حمدى ورغبتها فى التفوق عليه فى الدراسة . فى حين أن حمدى لم يعد يهتم بالتفوق الذى كان دائما حريصا عليه كل الحرص . فأصبحت تحصل على مجموع يفوق مجموعه ولايشعر بأى اهتمام لذلك . أتم الاثنان امتحان الثانوية

العامة . وكان كلما سأله والده عن الامتحان يجيب اجابة لاتتغير وهى :

— لا بأس .

— هل تتوقع مجموعا يسمح بدخولك كلية الطب التى تتمنى الالتحاق بها ؟

— لست أدرى ، لم يعد يهمنى دخول كلية الطب أو غيرها من الكليات .

— ماذا جرى لك ؟ هل فقدت الرغبة فى التفوق ؟

— لم يعد فى الحياة مايثير اهتمامى .

— يخيل الى أن فى صدرك سرا لاتود أن تبوح به .لماذا لاتطلعنى على أسرارك كما اعتدت دائما فقد أستطيع مساعدتك ؟ هل توجد مشكلة فى حياتك ؟

— المشكلة ليست فى حياتى ، بل فى وفاتى .

— ماذا تعنى بهذا ؟

— لا شىء ، انها مجرد كلمات لامعنى لها .

— لا أحب أن أسمع منك مثل هذا الكلام ، فأنت ابنى الوحيد ، وحياتك استمرار لحياتى .

— حياتى ليست استمرارا لحياة احد ، وإذا كانت حياتى استمرارا لحياتك كما تقول فلن أجد أنا استمرارا لحياتى .

— أسمع منك فى هذه الأيام أشياء كثيرة غريبة غير مفهومة . ما معنى هذا ؟ أنا أعلم سبب هذه الأفكار العجيبة ، إنه سوء التفاهم الذى حدث بينك وبين سامية ولا أعرف له سببا . لاتشغل بالك بذلك . سنذهب اليوم معا الى منزلهم ونزيل هذا التوتر ، ولا مانع لدى من أن أخطبها لك رسميا ليستريح بالك .

— أنا لا أريد أن أخطبها أو أخطب غيرها . لن أتزوج .

فى هذه اللحظة سمعا طرقات سريعة على الباب . أسرع حمدى وفتح الباب وإذا بسلمية فى يدها صحيفة تصيح :

— مبروك يا حمدى ، انت الأول على القطر .

اختطف حمدى الصحيفة . فوجد صورته واسمه وانه أول الثانوية العامة القسم العلمى . شعر وكأنه يقرأ خبر نعيه . أسرع الأب وقرأ النبأ وأعاد قراءته وجلس الثلاثة فى البهو والصحيفة تنتقل بين يدى الأب وسلمية وتعاد قراءتها . وصلت الضجة الى مسامع ليلى فاقبلت تعدو . اختطفت الصحيفة وقرأت النبأ ورأت صورة حمدى وقبلته قائلة :

الأول على القطر المصرى ؟ ألف مبروك .

أطلقت الدادة زغرودة ، على أنغامها رنت فى أذن حمدى كلمات أمه فى ليلة العاصفة عندما قالت :

— كان ترتيبه الأول فى الشهادة الثانوية على جميع تلاميذ القطر المصرى .

فاحتقن وجهه وبدا وكأنه يقاوم رغبة فى البكاء ، ثم انفجر يبكى بصوت مسموع . والأب وكل من فى الغرفة مذهولون . قالت سلمية :

— هل هو بكاء الفرح ؟

قال حمدى وهو يهم بالخروج من الغرفة وقد ألقى بالصحيفة على الأرض :

— بل هو بكاء الموت !

خرج من الغرفة وترك الجميع مشدوهين لايعرفون سر بكائه ولايدرون ماذا يفعلون . رفض الالتحاق بكلية الطب وصمم على

الالتحاق بكلية العلوم ، ولكنه علم أن سامية قررت الالتحاق بكلية الطب ، فأقنع نفسه بأن الانسان لايمكنه أن يهرب من قدره ، التحق بكلية الطب بجامعة القاهرة . وفى أثناء السنة الاعدادية للطب ، تنبأ له أحد المعيدين عندما شاهد تشريحه للجهاز الشريانى للضفدعة ، بأنه سيصبح جراحا عظيما . فاطرق نحو الأرض حزينا .

حصل على بكالوريوس الطب والجراحة بتقدير ممتاز بدرجة الشرف ، وأصبح طبيب امتياز ، ثم معيدا بقسم الجراحة العامة . وبينما هو مسافر الى القاهرة عقب حضوره لزيارة أهله ، تذكر أن اليوم هو عيد ميلاده الخامس والعشرين ، ورن فى أذنه صوت أمه :

— فى عيد ميلاده الخامس والعشرين انقلب به القطار .

شعر بخوف شديد والقطار منطلق بأقصى سرعته وكأنه مندفع نحو هاوية . فكر فى ايقاف القطار أو القفز من النافذة وصاح بأعلى صوته قائلا :

— أوقفوا القطار . القطار سينقلب .

نظر اليه الركاب نظرات مريبة . كانت بعض النظرات قاسية والبعض فيها عطف ورثاء لحاله . لم يعبأ بتلك النظرات بل صاح مرة أخرى قائلا :

— صدقونى . اعملوا أى شىء . أوقفوا القطار . القطار سيقع من فوق القضبان .

صاح أحد الركاب قائلا :

— اجلس يا غراب البين . من أدراك أن القطار سينقلب ؟

فى هذه اللحظة اهتز القطار هزة عنيفة ، فارتفع صراخ الركاب ،

وفى مثل لمح البصر حدثت الكارثة . سقطت العربات وتصادمت مع بعضها ، ولكن لم يصب حمدى بسوء . كانت عربته قد مالت على جنبها وارتكزت على عربة أخرى انقلبت على جانبها الأيسر ، فأخذ حقيبته وقفز من القطار .

هاله عدد الضحايا فاستبد به الفزع ، ثم تلاشى الخوف وتحول الى لامبالاة ، ثم شعر باكتئاب يشبه الذى كان ينتابه عندما يدخل مشرحة الكلية . ذعرت ليلى عندما رأته عائدا الى البيت كالمذهول وبدلته ملوثة بالتراب .

سألته بلهفة :

— ماذا حدث ؟

— لاشىء . القطار انقلب !

ألقى بحقيبته فى أحد أركان الغرفة ، وجلس مطرقا للأرض وقد خبأ وجهه بيديه ، بينما أسرعت اليه أخته تتحسس جسده لتطمئن عليه ، ثم انطلقت تعدو خارج البيت باحثة عن أبيها لتخبره .

ازدادت رغبة حمدى فى العزلة منذ ذلك اليوم ، وأصبح يحسب الأيام الباقية له على ظهر الدنيا ، ويهيىء نفسه لرحلته الأخيرة محاولا التقليل من شأن الحياة استعدادا لملاقاة الموت . لم يعد يجد ما يستحق الحزن أو الفرح ، والأيام تمضى وكأنها قطار بلا فرامل منطلق بأقصى سرعته نحو مكان مجهول .

بعد نحو عام . وصله خطاب من والده يخبره بأن أخته ليلى تقدم لخطبتها مهندس شاب يعمل فى احدى الشركات وأنهم وافقوا مبدئيا ، وسوف يقيمون حفلا للخطبة فى موعد يحدد قريبا .

فرح فرحا شديدا بهذا الخطاب ، بدأت الأحداث تختلف

عما سمعه من والدته ليلة العاصفة . كان المفروض أن تتزوج أخته من ضابط فى الجيش ولكن ها هى ذى تخطب لمهندس ، اذن من المحتمل ألا تتحقق باقى الأحداث . بدأ يشعر براحة نفسية لم يكن له عهد بها منذ أعوام طويلة . كانت سامية قد عينت معيدة بقسم الطفيليات . فوجئت بدخول حمدى غرفتها وعلى فمه ابتسامة عريضة لم تر مثلها على شفتيه منذ عهد بعيد . حدثها عن خطبة أخته لمهندس ، ثم استرسل فى الحديث عن مشروعاته التى يرجو تحقيقها وقد شعر بأنه قد أصبح له مستقبل ، ثم نظر اليها وقال بعد فترة صمت وتردد :

— سأطلعك على سر رهيب لم أبح به لانسان غيرك .

— سر رهيب ؟ ما هو ؟

قص عليها رؤيته لأمه فى ذلك المنزل العجيب ليلة العاصفة وما سمعه منها وما رآه ، واختتم حديثه قائلا :

— كانت أمى فى تلك الليلة تبدو وكأنها تعيش فى جزيرة منعزلة تسبق الزمن الذى نعيش فيه حيث ترى مستقبلنا وكأنه بالنسبة لها ماض وقعت أحداثه منذ زمن بعيد !

طفرت الدموع من عينى سامية وقالت :

— أكنت تتعذب وحدك فى صمت كل هذا العذاب طوال هذه السنين ؟ لماذا لم تخبرنى بذلك فأشاطرك أحزانك وأحاول تخفيف آلامك ؟

— آثرت أن أتحمل الأحزان وحدى .

— لاتحزن ولا تقلق بعد اليوم ، فها هى ذى التنبؤات قد بدأت تطيش سهامها . عندما رأى حمدى خطيب أخته يوم حفل الخطبة احتضنه وقبله وقال :

— هل تعلم لماذا انا سعيد ، فى منتهى السعادة ؟

— لماذا ؟

— لأنك مهندس .

كانت سامية هى الوحية التى فهمت معنى هذه الجملة ، أما باقى أفراد العائلة فلقد نظروا اليه بدهشة .

اتفق حمدى وسامية على اعلان خطبتهما وإرجاء تحديد موعد عقد القران الى الشهر القادم ، ووافقت العائلتان على ذلك ، ولكن عند ذهابهما من القاهرة الى القرية لهذا الغرض ، فوجىء حمدى بأن إصبع ليلى قد خلا من دبلة الخطبة . قال :

— ماذا حدث ؟

— فسخت الخطبة .

— لماذا ؟

قالت وهى مختنقة بالبكاء :

— اكتشفت أنه انسان شرير ضيق الأفق شديد الأنانية لايمكننى الحياة مع شخص مثله .

— لماذا ؟ إنه يبدو انسانا مهذبا .

— ولكن فى اعماقه وحشا مفترسا .

— كيف ؟

— اختلفنا فى أمور كثيرة . افكاره وطباعه لا تلائمنى .

قال حمدى وقد بدأت تسرع دقات قلبه :

— ألم يكن من الممكن التغلب على هذه الخلافات ؟

— لاتذكرنى به ، لا أريد التحدث فى هذا الموضوع .

مسحت دموعها وأسرعت بالخروج من الغرفة وتركت اخاها نهبا للحزن والقلق . لم يعد الظرف مناسبا للاتفاق على موعد عقد

قران حمدى وسامية ، فذهب حمدى الى بيتها وقص عليها ما حدث واتفقا على تأجيل الحديث عن موعد عقد قرانهما .

شغل هذا الموضوع فكره طوال الطريق وهو بصحبة سامية فى القطار العائد الى القاهرة . قالت سامية :

— لماذا كل هذا الحزن ؟ ان ليلى فى منتهى الجمال وفى مقتبل العمر واذا فقدت عريسا فسوف يخطبها عشرات غيره .

حاول حمدى الابتسام فلم يستطع ، قال :

— المسألة أخطر من ذلك .

— كيف ؟

— الأمر لا يخفى على ذكائك ، لابد انك تعلمين سر قلقى فانت الوحيدة التى أطلعتك على أسرارى .

— هل تخشى أن يخطبها ضابط فى الجيش ؟

أطرق الى الأرض ولزم الصمت . قالت :

— لاتخف ، لن يخطبها ضابط فى الجيش .

— كنت أظن أن النبوءات التى سمعتها من أمى ليلة العاصفة قد بدأت تكذب ، وكان هذا سر سعادتى التى لم تدم طويلا .

— لاتحزن قبل الأوان ، فلننتظر لنرى ماذا سيحدث .

بعد نحو شهر سافر حمدى وسامية الى القرية لزيارة الأهل . قال الأب :

— هل حضرت سامية معك ؟

— أجل .

— أنا لا أحب اطالة فترة الخطبة ، لماذا لانعقد قرانكما الآن ؟

قال حمدى مندهشا :

— الآن ؟ ! مستحيل ، لابد من اقامة حفل لهذه المناسبة .

بدأ التفكير فى الموت يعود من جديد ليحتل ذهن حمدى بعد فسخ خطبة أخته . وبدت له فكرة الزواج مخاطرة غير محمودة العواقب ، فأصبح ميالا لتأجيل عقد القران . قال لوالده :

يخيل الى أن عقد القران الآن قد يكون فيه جرح لمشاعر ليلى

قال الأب وقد بدا غير مقتنع بمنطق حمدى :

— كما تريد ، ولو أننى لا أرى ما يدعو لذلك .

بعد نحو ثلاثة شهور ازداد حزن حمدى وقلقه عندما وصل تلغراف من والده يطلب منه الحضور ليشهد عقد قران ليلى على ضابط فى الجيش تقدم لخطبتها . لاحظ أن التلغراف مرسل منذ يومين ، وأن موعد عقد القران يوم وصول التلغراف الذى استلمه فى المساء . لم يجد ما يدعو لاخطار سامية بهذا الموضوع . بل أسرع الى أقرب مكتب تليفون عام للتحدث مع والده . عندما أشار اليه الموظف بالذهاب الى الكبينة رقم ٤ ، اندفع كالعاصفة واختطف السماعة وقال :

— ألو .

سمع احدى السيدات تقول :

— ألو ، من المتكلم ؟

— أنا حمدى أتكلم من القاهرة ، أريد التحدث مع والدى بسرعة .

بعد نحو دقيقة مرت وكأنها ساعات سمع صوت والده يقول بلهفة :

— مالك يا حمدى ؟ لماذا لم تحضر ؟ هل انت بخير ؟

— لا ، لست بخير . وصلنى تلغرافك اليوم ، وعرفت منه أن ليلى سيعقد قرانها الليلة على ضابط فى الجيش ، هل هذا صحيح ؟

— طبعا صحيح كما أخبرتك فى التلغراف .

انفجر حمدى كالبركان صائحا :

— هذا الزواج يجب الا يتم .

ذهل الأب . فلم يدر ماذا يقول ، وظل صامتا نحو نصف دقيقة ثم قال :

— ما هذا الذى تقوله ؟ هل تعلم شيئا عن العريس ؟

— لا أعلم سوى انه ضابط فى الجيش !

— وما عيب الضابط فى الجيش ؟

قال بصوت مختنق بالبكاء :

— انها مسألة حياة أو موت !

— انا لا أفهم شيئا . ما علاقة هذا بالحياة والموت ؟ لقد تم عقد القران .

ترك حمدى السماعة مدلاة تتحرك كبندول الساعة ووالده يصيح قائلا : « ألو . ألو » دون أن يسمع أى رد من ابنه ، وصوت الزغاريد يختلط بصوت الأب الحائر المذهول الملهوف الذى بدا مكتئبا شارد الذهن . سأله العريس :

— مالك يا عمى ؟ هل تشكو من شىء ؟

— انا غير مطمئن على حمدى ابنى ، اتصل بى الآن تليفونيا من القاهرة . إنه فى حالة غير طبيعية ، يقول كلاما غريبا ويبكى .

— كان من المفروض أن نسافر أنا وليلى الى القاهرة غدا ، نسافر الليلة وأطمئنكم عليه .

فى هذه اللحظة وصل المصور ، فوقف العريس بجوار عروسه والتقط لهما ثلاث صور ، ثم استقل العريس سيارته بصحبة عروسه وانطلق بها نحو القاهرة ، ولكنه لم يطمئن الأب على

حمدى ، فلقد ظلت ليلى تحثه على زيادة السرعة للهفتها على الاطمئنان على أخيها ، فاصطدمت السيارة بشجرة ضخمة على حافة الطريق ، وتحققت النبوءة .

لم تبق سوى نبوءة واحدة من بين ما سمعه فى ذلك المنزل العجيب . إنها ترن فى أذنه وكأنها صوت القدر !

— مات حمدى ابنى يوم عيد ميلاده الثلاثين . كانت الساعة تدق . دقت اثنتى عشرة دقة ، ومات الطفل نتيجة لذلك .

فى تلك الليلة كان فى غرفة المدرسين المساعدين . كانوا ثلاثة ، اثنان منهم يلعبان الشطرنج . أما هو فقد جلس وحيدا ناظرا الى الساعة المعلقة على الجدار ينتظر الموت . ولا يدرى كيف سيحدث ، وهو فى كامل صحته وعنفوان شبابه .

قال أحد اللاعبين لزميله :



— كش الملك .

وبعد فترة تفكير قال لهذا الزميل :

— مات .

— لا ، لم يمت .

— بل مات .

لطمت كلمة الموت أذن حمدى . فانقض على رقعة الشطرنج واطاح بها صائحا :

— يموت فى ستين داهية .

نظر إليه زميلاه مذهولين . ولم يخرجهما من ذهولهما إلا إحدى الممرضات عندما دخلت الغرفة تطلب واحدا منهم لاجراء عملية جراحية . فقام أحد اللذين كانا يلعبان الشطرنج لاجراء هذه العملية .

بعد نحو عشر دقائق عادت الممرضة تطلب واحدا لاجراء عملية أخرى . ولم يبق بالغرفة سوى حمدى الذى لم يعد يرى سوى الساعة المحملق فيها ولا يسمع سوى دقاتها التى ترن فى أذنه كدق الطبول منتظرا تلاقى عقربيها عند الثانية عشرة وكأنهما سيطبقان على عنقه .

دخلت الممرضة تطلب حمدى لاجراء عملية جراحية . صاح قائلا :

— كيف أجرى عملية جراحية وأنا انسان ميت ؟ ابحثى عن غيرى يكون على قيد الحياة .

ذهلت الممرضة ولم تفهم شيئا ، فوقفت محملقة فيه لاتدرى ماذا تقول . وبعد نحو دقيقة قالت :

— لا يوجد غيرك الجميع مشغولون .

دون أن يحرك عينيه بعيدا عن الساعة صاح قائلا :
— انتظرى حتى ينتهى أحدهم من العملية التى يجريها .
— العملية لاتحتمل التأجيل . فهى لطفل صغير يتيم انفجرت زائدته الدودية ، وأمه فى حالة يرثى لها . فهو وحيدها .
خرجت الممرضة وظل حمدى مثبتا بصره على الساعة يكاد يحصى مرور الثوانى . بعد خمس دقائق اقتحمت سامية الغرفة وصاحت قائلة :
— ماذا تقول ؟ هل ترفض اجراء عملية جراحية لطفل حياته فى خطر ؟
صاح قائلا وقد نفرت عروق رقبته :
— أنت تعلمين لماذا أرفض اجراء العملية . أنا انسان ميت . ميت . الا تفهمين ؟
صاحت قائلة :
— لابد من اجراء هذه العملية حتى ولو كانت آخر عمل تقوم به فى حياتك . هيا ولا تضيع الوقت .
قام يجر ساقيه وكأنه مسوق الى حبل المشنقة . ارتدى المعطف وقام بتطهير يديه وارتدى اللثام والقفاز .
كان الطفل على منضدة العمليات ، ووقف بجوار المنضدة ممرضتان وطبيب البنج ، وكانت سامية قد رتبت الأوضاع بحيث تكون الساعة التى على جدار غرفة العمليات خلف حمدى ووقفت هى فى مكان مقابل له لتتمكن من رؤية الساعة . لم يكن لها أى دور فى اجراء العملية فهى لاعلاقة لها بالجراحة ، ولكنها حرصت على البقاء مع حمدى فى أثناء اجراء هذه العملية للاطمئنان عليه .
كان الطفل فى نحو التاسعة وقد ارتدى ملابس العملية

الجراحية . أعطاه طبيب البنج حقنة فى الوريد وما لبث أن كف عن البكاء بعد أقل من نصف دقيقة . كانت أم الطفل فى هذه الأثناء تذرع الممر جيئة وذهابا لاتكاد تبصر شيئا مما حولها الذى بدا لها من خلال دموعها وكأنه لوحة تجريدية .
انتهى حمدى من اجراء العملية ، ثم بدأ يقفل الجرح الخارجى ، وأعاد جدار البطن الى ما كان عليه . وسأل امية :
— كم الساعة الآن ؟
— الثانية عشرة والنصف . صباح الخير . بدأ يوم جديد .
نظر اليها مندهشا وهو يخلع قفازه وقال :
— ولكن كان من المفروض أن أموت فى منتصف الليل فى الساعة الثانية عشرة عند آخر دقة ويموت الطفل . لماذا لم أمت ؟ هل يتغير القدر ؟
— ربما . من يدرى ؟ يخيل الى أن هذا الطفل كان لابد أن يعش من أجل أمه فعشت أنا من أجله . هناك من الأشياء ما يعجز عن ادراكها عقلنا البشرى مهما أوتينا من العلم .
نظر الى الساعة ثم خرج من غرفة العمليات وهو لايكاد يصدق أنه على قيد الحياة . اندفعت الأم نحوه تسأله بلهفة :
— كيف حال ابنى يا دكتور ؟
— نجحت العملية .
اختطفت يده قائلة :
— يدك أبوسها .
حاولت تقبيل يده ، فانتزعها منها وربت على ظهرها بحنان ، واتجه نحو غرفته وكأنه يسير فى حلم .

● ● ● ● ●

لا مكان



صحا من نومه فى صباح هذا اليوم شاعرا بآلام شديدة فى ظهره . منعته من القفز من فراشه نشيطا كعادته . فاعتدل رافعا نصفه الأعلى بصعوبة . ودَّ لو يظل نائما ، ولكن يتحتم عليه أن يكون فى مقر عمله فى الثامنة والنصف .

إن أول شيء يفعله عندما يقوم من نومه هو النظر إلى ساعته . لم يجد الساعة فى معصم يده . مد يده نحو « الكوموديينو » ، لعله يجدها فوقه ، شعر بألم شديد فى كتفه ولم يجد الساعة . تحامل على نفسه ووضع قدميه فى الخف الذى يتركه كل ليلة بجوار سريره قبل أن يأوى إلى فراشه .

شعر بألم لا يطاق فى ركبتيه . حاول الانحناء باحثا عن الساعة علَّها تكون قد سقطت بين السرير والكوموديينو ، ولكن الألم الشديد الذى سرى فى ظهره وكأن نارا اشتعلت فى عموده الفقرى منعه من الانحناء فأرجأ البحث عن الساعة إلى وقت آخر . عزا ذلك التعب إلى تأخره فى النوم فى الليلة الماضية ، فلقد صممت خطيبته على الاحتفال بعيد ميلاده الثلاثين ، فظل فى منزلها حتى الواحدة بعد منتصف الليل ، وعندما عاد إلى منزله لم يستطع النوم قبل الثالثة صباحا وهو لم يعتد السهر إلى هذه الساعة المتأخرة

أحس برجفة تسرى فى جسده عندما نظر إلى صورته فى مرآة الحمام . إنه يرى أمامه وجه رجل فى نحو السبعين من عمره . شعره الذى كان فاحم السواد فى الليلة الماضية . يراه الآن ناصع البياض لا تتخلله شعرة واحدة سوداء ، حتى حواجبه اشتعل فيها الشيب وامتلأ وجهه بالغضون والأخاديد ، وامتدت بين ذقنه ورقبته ثنية مترهلة من الجلد .

بدا يحلق ذقنه وهو شارد الذهن وكانه يحلق ذقن انسان آخر . تذكر أن نومه فى الليلة الماضية لم يكن مريحا بل كان متقطعا ، راى احلاما مزعجة وكوابيس عديدة ، نسى تفاصيل معظمها ، لكنه يتذكر جيدا آخر كابوس رآه قبيل استيقاظه صباح اليوم .

راى فى منامه انه جائع يبحث عن مطعم يتناول فيه طعامه فى مدينة لا يعرفها . بدت المدينة وكأنها ، مهجورة ، شوارعها خالية من اى مظهر من مظاهر الحياة ، ظل يجول فى انحائها دون أن يصادفه إنسان واحد او قطة او كلب او اى كائن حى . شعر برعب شديد فاسرع الخطى ، ثم بدا يعدو كانه يهرب من الخوف الذى استولى عليه ، لكنه مع كل خطوة كان يزداد رعبا . وصحا من نومه وقلبه يدق فى سرعة وعنف .

عندما فكر فى تنظيف اسنانه بالفرشاة تذكر انه نسى شراء انبوبة جديدة من معجون الأسنان . إنه ينسى إحضار هذه الأنبوبة منذ ايام ، ولا يتذكرها إلا عندما يحتاج إليها فى الصباح ، فهو لا ينظف اسنانه إلا مرة واحدة صباح كل يوم . اكتشف أن معظم اضراسه وعددا من اسنانه لا وجود لها ، وما تبقى منها متآكل لم يعد صالحا للاستعمال . استولى عليه شعور رهيب اشاع قشعريرة فى جسده .

لماذا حدث لى ؟ اين ذهب شبابى وكيف اختفت اسنانى التى كنت اكسر بها البندق واللوز والجوز فى الليلة الماضية فى منزل خطيبتى ؟

لم يجد وقتا كافيا للذهاب إلى المطبخ لتناول فنجان الشاى الذى اعتاد تناوله قبل خروجه إلى عمله . سمع ضوضاء اطفال يلعبون ويصرخون واصوات مطارق تهوى على اجسام صلبة .

ما هذه الضوضاء ؟ لقد أخترت هذا المسكن فى مكان هادىء لأننى احب الهدوء . منذ سكنت هنا لم تلطم طبلتى أذنىّ مثل هذه الضجة . لماذا حدث ؟

فتح النافذة واطل منها فراى منظرا لم يالفه . اختفت حديقة المانجو الواسعة التى كانت تشغل نحو خمسة أفدنة فى الجهة المقابلة لمنزله وحل محلها عدد كبير من ورش السيارات . والشارع الذى كان نظيفا لامعا يراه الآن مليئا بالحفر والقلنورات وهياكل سيارات يدق عليها بالمطارق عدد من الصبية فى محاولة يائسة لاصلاحها ، لقد استهلكها الزمن بعد طول استعمال . خشى أن تمزق الضوضاء طبلتى أذنيه فاغلق النافذة .

ارتدى ملابس الخروج باقصى ما يستطيع من سرعة . لفت نظره شرخ كبير فى احد جدران غرفة النوم ، كما لاحظ عدة تشققات فى السقف وعدة ثقوب فى صوان ملابسه . راى مثل هذه الثقوب فى باقى أثاث المنزل ، لقد نخره السوس ! عندما جلس على أحد الكراسى ليضع قدميه فى الحذاء لم يحتمل الكرسى ثقل جسده فانهار تحته واكمل لبس حذائه وهو جالس على أرض الغرفة ، ثم قام بصعوبة وقد شعر بازدياد وطأة الألم فى ظهره وركبتيه وكتفيه .

لقد أخترت هذا المسكن لأنه متين البناء ، وهو المنزل الذى ساعيش فيه مع خطيبتى بعد الزواج . أعجبها المنزل واخترته من بين عشرات المساكن . لم يكن به شرخ واحد . كان أجمل منزل فى هذه المنطقة ، والأثاث جديدلم تكن به أية ثقوب ، والكرسى الذى انهار تحتى الآن هو نفسه الذى جلست عليه عندما خلعت حذائى ليلة أمس ، كان متينا .

أسرع بالخروج ليصل إلى مقر عمله . ألقى نظرة على المنزل

فوجده آيلا للسقوط ، من يراه يتوقع انهياره بين لحظة وأخرى .

كان من عادته الذهاب إلى مقر عمله سيرا على الأقدام . . فهو لا يبعد كثيرا عن منزله . عندما وصل إلى المكان اكتشف انه قطع المسافة في مدة أطول من المدة المعتادة ، إذ أن خطواته أصبحت أقصر وسيره أبطأ . لم يجد المبنى الذى كان فيه مقر عمله ، ووجد في مكانه عمارة اخرى !

بالأمس فقط كانت هنا مكتبة في الدور الأرضى ، خلف زجاج واجهتها كانت مرصوصة بجوار بعضها الكتب الثلاثة التى قمت بتأليفها . كان يحلو لى الوقوف لرؤية كتبى . أين ذهبت المكتبة ؟ الدور الأرضى في هذا المبنى يشغله الآن محل عصير قصب ! كل شيء تغير ؟ حتى بواب العمارة « عمران » تغير . من الطبيعى أن يتغير بواب العمارة عندما تقام عمارة اخرى ، ولكن كيف يحدث كل هذا في أقل من يوم وليلة ؟ البواب الجالس امام العمارة الجديدة شاب في نحو الثلاثين ، سأستفسر منه عن مقر عملى ربما يمدنى ببعض المعلومات .

— كان في هذا المكان ، بالأمس فقط ، مبنى يضم شركة أعمل فيها ، لست ادرى ماذا حدث ، أنا لا أجد المبنى .

قال البواب بدون اكتراث :

— لا توجد في هذا المبنى شركات . كل من فيه عائلات .

أطل من جميع نوافذ المبنى في هذه اللحظة عدد كبير من الأطفال أخذوا يصيحون صيحات لم يستطع فهم شيء منها ، ولم يستطع احتمال صراخهم .

سار يبحث عن مقر عمله في كل مكان فلم يعثر له على أثر . أضناه التعب ، لاحظ وجود مقهى لم تسبق له رؤيته . دخل

المقهى ليستريح قليلا ويتناول فنجانا من الشاى . كانت جميع الكراسى يجلس عليها شبان وفتيات فلم يجد كرسيا واحدا خاليا . . فخرج من المقهى حزينا . شعر بدوار فأسند رأسه على أحد الجدران ، وعندما رفع رأسه رأى على الجانب المقابل دارا للسينما لم يرها من قبل . تذكر ان في هذا المكان كان يوجد حتى ليلة أمس مسجد اعتاد أن يؤدى فيه صلاة الجمعة . رأى طابورا طويلا من الفتيات والشبان أمام شباك تذاكر دار السينما . لم يهتم بمعرفة الفيلم الذى يعرض في الدار ، ولكنه فكر في الدخول لمجرد الجلوس بعض الوقت ليستريح . وقف في نهاية الطابور . أخذ الطابور يتقدم ببطء نحو شباك التذاكر . ظل في نهاية الطابور ولم يقف أحد خلفه . بعد فترة طويلة وجد نفسه أمام شباك التذاكر . طلب من الفتاة الجالسة خلف الشباك تذكرة في الصالة ، قالت الفتاة :

— شغلت جميع الأماكن في الصالة وفي البلكون .

ثم أقفلت الشباك . ظل واقفا ناظرا إلى الشباك في يأس ، ولما وجد أن وقوفه وحملقته في الشباك لا جدوى منها تحرك وسار على الرصيف .

فكر في الذهاب إلى منزل خطيبته . لكى يصل إلى ذلك المنزل ينبغى أن يركب الأتوبيس رقم عشرة . وقف عند محطة الأتوبيس بجوار عدد ضخم من الشباب من الجنسين . كان أحد الشبان يحمل جهاز راديو تنبعث منه أغنية لمطرب لم يسبق له سماع صوته .

لم تعجبه الأغنية وشعر بالعذاب لاضطراره إلى سماعها على الرغم منه . كانت الأغنية رديئة اللحن سقيمة الكلمات ، ولكن الجميع كانوا ينصتون إليها بشغف ونشوة . أخذ عدد من الشبان

والفتيات يرقص على أنغامها . رجا حامل الراديو أن يتكرم باقفاله أو تخفيض صوته لأن الأغنية سببت له دوارا وغثيانا . صاح الجميع معترضين وانهالوا عليه لوما وسباً ، وقالوا له إن الأغنية إذا كانت لا تعجبه فانها تعجبهم جميعا ، وبمكنه أن يبتعد عن هذا المكان إذا كان لا يرغب فى سماعها . وضع يديه فى أذنيه ليخفف من وقع موجات الصوت على طبلتى أذنيه ، وظل واقفا على هذه الحال مدة طويلة ، أخيرا وصل الأوتوبيس ، هو « خمسة وخمسون » وليس « عشرة » . استمر واقفا ينتظر رقم « عشرة » توالى وصول أوتوبيسات بأرقام مختلفة ولم يجد بينها ما يحمل رقم عشرة . أوشك على الانهيار فجلس القرفصاء بجوار الجدار . اقبل نحوه احد رجال الشرطة وركله بقدمه وامره بالوقوف قائلا له إن الجلوس ممنوع فى هذا المكان لأنه غير معد للجلوس . وقف بمشقة شاعرا بأن جميع عظامه تؤلمه . قرر أن يركب أى أوتوبيس ليستريح على أى مقعد . اقبل أوتوبيس يحمل رقم ٦٦٦ . حاول الركوب ولكنه لم يجد فى الأوتوبيس موضعا لقدمه فتراجع .

سار على غير هدى . بالقرب من أحد الميادين رأى خطيبته متأبطة ذراع رجل فى نحو السبعين

انها خطيبتى التى كنت فى منزلها بالأمس . هى بعينها ، ولكن سنها الآن لا تقل عن الستين عاما .

ناداها ، فالتفتت كما التفت نحوه الرجل الذى تتأبط ذراعه ، ثم استأنفا سيرهما غير عابئين به . اعترض أحد رجال الشرطة طريق خطيبته والرجل الذى فى صحبتها وأشار لهما نحو زقاق مظلم فاتجها نحو ذلك الزقاق . ظل ناظرا نحوهما مشدوها إلى أن ابتلعهما ظلام الزقاق .

اقبل نحوه رجل الشرطة ، فوقف ناظرا اليه فى خوف . قال له رجل الشرطة :

— هل معك نقود ؟

وضع يده فى جيبه واخرج كل ما معه من نقود ، وبعد أن عدها قال لرجل الشرطة :

— معى واحد وخمسون قرشا .

— كيف تجرؤ على السير فى هذا الشارع وليس فى جيبك سوى هذا المبلغ التافه ؟

— لى رصيد فى البنك قدره ستون جنيها .

— لا شأن لنا برصيدك الحقير هذا ، من يسير فى هذا الشارع يتحتم عليه أن يحمل مبلغا من المال لا يقل عن عشرة آلاف جنيه .

واشار له نحو زقاق آخر مظلم فسار فيه . فكر فى الذهاب إلى البنك لسحب جزء من رصيده . لم يجد البنك ، بل وجد فى المكان الذى كان يشغله خرابة يلعب فيها عدد من الأطفال ، عندما رأوه أخذوا يقذفونه بالحجارة ، فهرول مبتعدا عنهم . فكر فى الرجوع إلى منزله ولكنه تذكر أن منزله قد أصبح آيلا للسقوط وينبغى أن يبحث عن شقة أخرى ينتقل اليها .

سار يبحث عن شقة خالية ، وفى أثناء ذلك أخذ يسأل عن البنك الذى أودع فيه نقوده . لم يهتد إلى البنك ولم يعثر على شقة واحدة خالية . رأى كشكا صغيرا من الخشب يجلس بداخله رجل ضئيل الحجم فى نحو الأربعين وفوق الكشك لافتة « سمسار عقارات » . كان السمسار واضعا رأسه على منضدة صغيرة أمامه وقد ارتفع صوت شخيره . أيقظه وسأله عن شقة خالية . نظر اليه السمسار بعينين حمراوين وظل مثبتا بصره عليه نحو دقيقة ثم قال :

— لا توجد أية شقة خالية فى المدينة .

سأله عن البنك ، قال له السمسار إن هذا البنك أفلس منذ سنوات عديدة . رأى شرطيا مقبلا نحوه فأسرعت دقات قلبه ، قال له رجل الشرطة :

— هل معك نقود ؟

أجاب قائلا وقد أوشك على الانهيار :

— لى رصيد فى البنك ، ولكن البنك أفلس . وفى جيبى واحد وخمسون قرشا .

جذبه رجل الشرطة من ذراعه بعنف وأشار نحو زقاق مظلم وقال :

— سر فى هذا الزقاق ، من يجرؤ على السير فى هذا الميدان يتحتم عليه أن يكون فى جيبه مبلغ لا يقل عن مائة ألف جنيه .

اتجه نحو الزقاق المظلم . كانت جميع الأبواب على جانبى الزقاق موصدة . بين هذه الأبواب الموصدة وجد واجهة مكتبة صغيرة بابها مفتوح . وقف فاحصا الكتب المعروضة خلف زجاج الواجهة . إنها كتب ذات عناوين جنسية صارخة كتبها مؤلفون لم يسمع عنهم . شعر بخجل شديد وهو يقرأ تلك العناوين . دخل المكتبة وسأل عن كتبه الثلاثة ، فقال له صاحب المكتبة إنه لم يسمع عنها . أراد شراء رواية لأحد كبار المؤلفين تعجبه مؤلفاته . قال له صاحب المكتبة إن مثل هذه المؤلفات لم تعد تعرض فى المكتبات ، فلقد توقفت طباعتها منذ سنوات عديدة لعدم الاقبال على قراءتها ، ولم يعد أحد يتذكر مؤلفيها . خرج من المكتبة حزينا .

ظل سائرا فى الزقاق ، ثم ترامى إلى مسمعه صوت دقات مطارق وصراخ أطفال ورأى نفسه أمام منزله . كانت قواه خائرة فشعر برغبة فى الجلوس على أول كرسى يصادفه فى البهو ، ولكنه وجد البهو خاليا من الأثاث .

اتجه نحو غرفة نومه . وجد بالغرفة سريرا غير سريره وفوقه شاب وفتاة متلاصقان . ندت عن الفتاة صرخة فزع عندما رآته وصاح الشاب قائلا بغضب :

— كيف تجرؤ على دخول غرفة نومنا بلا استئذان ؟

قال فى ذهول بصوت ضعيف :

— إنها غرفة نومى .

قذفه الشاب بفردة حذاء أصابته فى وجهه . فأسرع مبتعدا عن الغرفة واتجه نحو غرفة المكتبة . لم يجد المكتبة ، بل وجد سريرا جديدا وفوقه شاب وفتاة يمارسان الحب عاريين . صرخت الفتاة وقام الشاب وصفعه صفعة قوية على خده الأيسر .

هرول متجها نحو غرفة الصالون . لم يجد الصالون ، بل وجد سريرا ثالثا عليه شاب وفتاة يمارسان العملية الجنسية . أسرع بالابتعاد عن الغرفة قبل أن يتمكن أحد منهما من رؤيته .

وقف حائرا خائر القوى لا يدرى إلى أين يذهب . صاح قائلا :

— كيف يجرؤ هؤلاء المنحلون والعاهرات على احتلال منزلى وتحويله إلى وكر لممارسة الفحشاء والرذيلة ؟ !

رد عليه صوت من إحدى الحجرات يقول فى غضب وانفعال :

— لسنا منحلين ، إننا متزوجون أيها المتطفل !

صاح قائلا :

— تتزوجون هنا فى منزلى ؟ كيف يحدث هذا ؟ لم يعد لى مكان

حتى في منزلى الذى أعيش فيه وأدفع إيجاره ؟

انفجر الجميع ضاحكين ولم يدر لماذا يضحكون . بعد أن هدأت موجة الضحك سمع صوتا منبعثا من ناحية المطبخ يقول :

— لك مكان ، هنا عندي .

اتجه نحو مصدر الصوت . لم يجد محتويات المطبخ ، بل وجد شابا أسمر مفتول العضلات واقفا في احد الأركان ، وعلى أرض المطبخ رأى صندوقا مستطيلا ذا غطاء مفتوح . قال للشاب الأسمر :

— انا تعبت واريد ان أستريح ولا اجد كرسيا أجلس عليه او سريرا انام فيه . كيف يحدث هذا في منزلي ؟

قال الشاب الأسمر مبتسما ومشيرا نحو الصندوق :

— يمكنك ان تنام وتستريح في هذا الصندوق .

سار نحو الصندوق مستسلما وقد أرهقه التعب . نام في الصندوق واضعا يده اليمنى تحت راسه . بدا يشعر بالراحة . اقفل الشاب غطاء الصندوق وسمع النائم بداخله صوت قفل يقفل .

● ● ● ● ●

فراشة تحلم !

زمن بعيد ، بعيد جدا ، منذ ملايين السنين ، قبل أن يوجد الإنسان على سطح هذه الأرض ، لم يكن يعمُر الدنيا سوى فراشات وطيور وحيوانات متعددة الأشكال والألوان .

فى ليلة من ليالى الخريف فى ذلك العهد البعيد ، والنسيم يهز غصون الأشجار فتتناثر اوراقها ، كانت فراشة جميلة نائمة فوق غصن صغير ، وفى نومها رات حُلما ، فاستيقظت واجنحتها ترتجف من هول ما رات .

بدا نور الفجر يطل من خلال اشجار الغابة ، فطارت الفراشة واخذت تهيم على غير هدى ، ولما اضناها التعب استقرت فوق غصن شجرة من اشجار الصنوبر واجهشت بالبكاء . راتها عصفورة ، فتركت عشها ورفرفت بجناحيها وهبطت بجوار الفراشة . نظرت إليها بحنان وسالتها :

— لم تبكين ؟

قالت الفراشة :

— رايت فى منامى حلما روّعنى .

— وما هو هذا الحلم ايتها العزيزة الصغيرة ؟

— رايت اننى طائرة ابحث عن حبيبى بين الأشجار واغنى له اغنية جميلة .

— ماذا كنت تغنين ؟

— كنت اغنى اغنية الشوق الحزين .

— انا لا اعرف هذه الأغنية ، هل من الممكن ان اسمع كلماتها ؟

— اجل ، تقول كلماتها :

« يا حبيبى اقبلَ الفجرُ وغنَّى العندليبْ
والندى قد عانقَ الأزهارَ والغصنَ الرطيبْ
ها هى الأطيارُ غَنَّتْ فَرْحَةْ
ها هى الأزهار مالت نَشْوَةْ
وانا وحدى اقاسى لَوْعَةْ
واناد‍ى : يا حبيبى : وحبيبى لا يجيبْ
لا ادرى فى الروض حسناً إن يغبْ عنِّى الحبيبْ »

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— بينما انا اشدو باغنيتى ، وجدت نفسى بغتة داخل شىء لم اتمكن من الخروج منه . نظرت مرتاعة فوجدت هذا الشىء مثبتا فى عصا طويلة يحملها مخلوق غريب لم أر له مثيلا من قبل ، يسير منتصبا على ساقين اثنتين ، ويغطى جسده بشىء عجيب لا أعرفه ويضع على راسه شيئا غريبا . اخذت ابكى واستعطفه وقلت له : « من انت وما الذى تريد منى ؟ » فقال لى : « لا شأن لك بى » . قلت : « كيف تقول هذا وقد أصبح مصيرى بين يديك ؟ ! لقد روّعتنى وسلبتنى حريتى » . فقال : « ستعرفين كل شىء عندما أصل إلى معملى » .

— معمله ؟ ! ما معنى هذه الكلمة ؟

— لست ادرى . استحلفته بكل عزيز لديه الأ يؤذينى ، فقال : « يكفيك فخرا انك ستموتين شهيدة ! » . فقلت له والرعب يملأ قلبى : « أموت شهيدة ؟ شهيدةماذا ؟ » . فقال : « شهيدة العلم ! » . فلم افهم شيئا .

— ولا انا .

— أنا أحكى لك ما سمعته منه ولو أننى لا أفهم معناه .

ثم ماذا ؟

— قلت له : « هل يعنى هذا أن حياتى فى خطر ؟ » قال : « أجل » . قلت له : « ومن الذى سيسلبنى الحياة ؟ » قال : « أنا » . قلت : « وهل يُقتل من لم يرتكب إثما ؟ » . قال : « أليست هذه شريعة الغابة ، يقتل القوىُّ الضعيف ؟ » . قلت : « فى الغابة لا يقتل القوىُّ الضعيفَ إلا إذا جاع » . قال : « أو إذا ظمىء ! » . قلت : « إذا كنت ظمآنا فليس لدىَّ ما يروى ظمأك ، فما أنا إلا فراشة ضعيفة مسكينة ضئيلة الحجم لا أرد جوعا ولا اطفىء ظمأ . أمامك البحيرات الواسعة والينابيع الصافية فاذهب وارتو منها كما تشاء وامنحنى حريتى التى سلبتها منى ، فالحرية أغلى ما فى الوجود » . فقال : « إن ظمئى ليس للماء بل للمعرفة ، وأنت ستروين ظمئى » . فلم أفهم شيئا وقلت له : « وما هى هذه المعرفة ؟ إننى لا أعلم عنها شيئا . كيف أروى ظمأك من شىء لا أملكه ؟ ! » . فنظر إلىَّ بازدراء وقال : « قد ينبع الماء من الصخر ! » . قلت له : « وهلا يُروى ظمؤك هذا إلا إذا قتلتنى ؟ » . قال : « أجل ، لابد من ذلك بكل أسف ، ولكننى قبل أن أقتلك سأحتفظ بك عندى فى معملى فترة من الزمن لمعرفة كل شىء عنك : كيف تأكلين ، كيف تطيرين ، كيف تتناسلين ! » . فصحت قائلة وقد استبد بى الفزع : « مستحيل ، مستحيل . كيف تجرؤ على ذلك وكيف تستبيح لنفسك أن تطّلع على أسرارى ؟ ! » . فاستمر يقول وكأنه يجد لذة فى تعذيبى : « ثم أقتلك بعد ذلك ،

وأفتح بطنك وأخرج أمعاءك لتقطيعها إلى شرائح رقيقة لدراسة أنسجتها وخلاياها ، كما أننى سوف أدرس تركيب رأسك وأرجلك واجنحتك » ، فلم افهم كلمة واحدة مما قال وقلت له : « وما الفائدة التى ستعود عليك من كل هذا ؟ » . قال : « هذا ما نسميه العلم ، والمعرفة » . فبكيت كثيرا وأخذت أستعطفه قائلة : « أستحلفك بكل عزيز لديك ألا تقتلنى فإننى أحب الحياة » . فقال : « كل مخلوق على ظهر الأرض يحب الحياة ، ولكن الموت هو مصير كل حى » . فبكيت وقلت له : « لم أكن أعلم ذلك . كنت أظن أننى لن أموت أبدا » . فرمقنى بنظرة احتقار وقال : « لأنك جاهلة . وهذا هو الفرق بيننا وبين أمثالكم من الحيوانات ، تظنون أنكم ستعيشون إلى الأبد بينما نحن نعلم أن الموت هو المصير المحتوم » . وقال كلاما كثيرا لم أفقه شيئا منه ، ثم قال : « ألا تعلمين أيتها الجاهلة أن لك إسما لا تعرفينه ؟ » . فقلت له فى دهشة : « أنا لى إسم لا أعرفه ؟ ! وما هو هذا الاسم ؟ » . فذكر لى إسما طويلا قبيحا لم تستطع ذاكرتى الاحتفاظ به ، فبكيت وقلت له : « أنا التى يقولون عنى إننى أجمل من بالغابة تطلقون علىَّ هذا الاسم القبيح ؟ وبأى حق تسموننى بهذا الاسم البغيض بدون علمى ؟ ! » . فقال : « ومن منا له حق اختيار اسمه ؟ إننا جميعا نخرج إلى الحياة فنجد أنفسنا نحمل أسماء لم يستشرنا فيها أحد » .

وفى هذه اللحظة أيتها العصفورة العزيزة هبت عاصفة عاتية ، فزمجرت الرياح وقصف الرعد ، ووجدت نفسى خارج ذلك الشىء الذى كنت حبيسة بداخله وحملتنى الرياح بعيدا عن ذلك المخلوق

العجيب . عند ذلك صحوت من النوم خائفة أرتعد . أليس هذا حلما مزعجا تقشع منه الأبدان ؟

قالت العصفورة :

— لم أر في حياتي حلما مفزعا كحلمك هذا ، ولكنه على أية حال مجرد حلم مضى وانقضى ، فلا تخافي ولا تحزني أيتها الفراشة الوديعة .

قالت الفراشة وأجنحتها لا تزال ترتجف رعبا :

— أخشى أن يكون نذيرا بشر رهيب يوشك أن يعصف بالغابة .

قالت العصفورة وقد بدأ الرعب يتسلل إلى قلبها :

— وما العمل ؟ كيف نتقي هذا الشر ؟

— لست أدري . إنني في حيرة من أمري . يخيل إلى أن مخلوقا غريبا لا عهد لنا به سيهبط علينا هنا يهدد أمننا ويجلب لنا الشقاء .

— إذا كان الأمر كذلك فلابد أن نتعاون معا ونعد العدة لمقاومة هذا المخلوق الشرير عندما يجيء .

— وماذا نفعل ؟

— لي من أصدقائي غراب عهدت فيه الحكمة ورجاحة العقل . هيا نخف إليه نسأله المعونة .

طارت الفراشة في صحبة العصفورة ووصلتا إلى ذلك الغراب .

قالت العصفورة للغراب :

— لقد رأت الفراشة في منامها حلما مزعجا ، ونخشى أن يكون نذيرا بشر عظيم .

— وما هو هذا الحلم يا عزيزتي الفراشة ؟

قصت الفراشة حلمها عليه فشعر الغراب بشيء من الخوف وقال : حلم عجيب ! . .

قالت الفراشة :

— بل حلم رهيب . إنه ينبىء بأن مخلوقا غريبا سيهبط علينا ليعذبنا ويقتلنا وينشر بيننا الحزن والفزع .

قال الغراب :

— ولماذا يقتلنا بدون ذنب ؟

قالت الفراشة :

— ليعرف ما بداخل أجسادنا !

ضحك الغراب وقال :

— يقتلنا ليعرف ما بداخل أجسادنا ؟

قالت الفراشة :

— سيفعل ذلك في سبيل شيء إسمه المعرفة ، هكذا قال لي .

قال الغراب بدهشة :

— المعرفة ؟ ! وما هي هذه المعرفة ؟ معرفة ماذا ؟

قالت الفراشة :

— معرفة كل شيء .

قال الغراب :

— لم أسمع عنها من قبل . قد تكون نوعا من الجنون !

قفزت العصفورة قفزتين ثم قالت :

— جئنا نستشيرك لما نعهده فيك من حكمة ورجاحة عقل . .

قال الغراب بزهو وخيلاء :

— إذا كان الأمر كذلك فلابد أن أكون عند حسن ظنكما . لقد خطرت لى فكرة .

قالت الفراشة بلهفة :

— ما هى هذه الفكرة ؟

— إن صوتى كما تعلمين هو أعلى الأصوات فى الغابة .

قالت الفراشة وقد شعرت بخيبة أمل :

— وماذا سنصنع بصوتك ؟ إننا فى حاجة إلى عقلك وفكرك لا إلى صوتك .

— لا تتسرعى يا فراشة ، انتظرى حتى أكمل حديثى .

— أكمل حديثك .

— سأصعد فوق أعلى شجرة بالغابة حتى إذا أبصرت هذا المخلوق العجيب قادما نحونا انطلق ناعقا بصوت جهورى متقطع وبنبرات واضحة معلنا قدوم الخطر فأمنحكما أنتما وغيركما من الحيوانات فرصة الاختباء . حتى إذا زال الخطر وابتعد عنا انطلقت أنعق بصوت مستمر لتعودوا إلى حياتكم الطبيعية .

قالت الفراشة بحماس :

— فكرة رائعة . إننا لا نطمع فى أكثر من ذلك .

قال الغراب :

— وسأذهب إلى صديقى الأرنب وأقص عليه القصة وأطلب منه أن يتولى هو وجميع أرانب الغابة مهمة حفر أنفاق تختبىء فيها الحيوانات التى لا تستطيع الطيران أو تسلق الأشجار عندما أعلن قدوم الخطر .

طار الغراب إلى الأرنب وقص عليه الحلم وطلب منه أن يتعاون

هو وبقية الأرانب لحفر الأنفاق . فأبدى الأرنب استعداده هو وزملاؤه الأرانب للقيام بهذه المهمة . وفى خلال أيام قلائل كانت الأنفاق قد تم حفرها فى جميع أنحاء الغابة فى سرعة مذهلة ومهارة فائقة .

وفى عصر يوم من الأيام انطلق الغراب ينعق معلنا قدوم الخطر . فأسرعت الحيوانات التى لا تستطيع الطيران واختبأت فى الأنفاق . وطارت الحيوانات القادرة على الطيران ، وتسلقت الأشجار من تستطيع تسلقها . وبقى الغراب قابعا بأعلى الشجرة . وساد السكون فى جميع أنحاء الغابة . وبعد فترة من الزمن أعلن الغراب زوال الخطر .

ظل الخوف والقلق والاضطراب مسيطرا على كل من بالغابة من الحيوانات ، إذ كلما لاح خيال شجرة تتمايل أو ظل سحابة عابرة ، ظن الغراب أنها ذلك المخلوق الغريب فينطلق ناعقا معلنا الخطر ، فتسرع الحيوانات إلى الاختباء والخوف يكاد يمزق قلوبها . وأخيرا ذهبت الفراشة إلى صديقها الهدهد وقالت :

— لقد سئمت تلك الحال . لم تعد أعصابى تحتمل أكثر من ذلك ، فلقد أصبحت أرتعد من سماع كل صوت يشبه صوت الغراب ، وعندما أسمع نعيقه يخيَّل إلىَّ أن قلبى سيقفز من جسدى . وإذا دامت تلك الحال طويلا فسأموت من الخوف قبل أن يقتلنى المَخلوق الغريب . إن حفيف الأشجار يزعجنى فما بالك بنعيق الغراب الذى يعلن قدوم الخطر ؟

قال الهدهد :

— ليتنى أستطيع تخفيف آلامك أيتها الفراشة الرقيقة

إن أسرع المخلوقات إلى الخوف من مثل هذه الأشياء هم أصحاب الشعور المرهف والإحساس الرقيق امثالك .

قالت الفراشة :

— سمعت عن عرّافة تقيم فى مكان بعيد منعزل . فلماذا لا نذهب إليها نسألها عما يخبئه القدر لنا حتى نستريح من عناء القلق والانتظار ؟

قال الهدهد :

— أعرف تلك العرافة . إنها جرادة عرجاء تعيش تحت شجرة سرخس بالقرب من حفرة ماء سحرية .

طارت الفراشة بصحبة الهدهد ووصلا إلى الجرادة العرافة ، فاستقبلتهما وهى تتوكأ على عصا وقالت الفراشة لها :

— صباح الورد يا عرّافة .

قالت الجرادة :

— صباح الياسمين أيتها الفراشة .

قال الهدهد :

— جئنا إليك نسألك . . .

فلم تتركه الجرادة يتم حديثه . بل قاطعته قائلة :

— أنا أعرف لماذا جئتما ، فالعرافة ينبغى لها أن تقرأ ما فى الصدور قبل أن يفصح عنه اللسان ، أنتما تريدان السؤال عن هذا المخلوق الغريب الذى رآته الفراشة فى منامها . قال الهدهد :

— إذن خبرينا ماذا يخبئه لنا القدر ، ومن هو ذلك المخلوق العجيب فلقد أصبحنا فى هم وكرب عظيم ، نبيت فى رعب ونصحو

فى فزع خوفا من قدومه فى اية لحظة من لحظات النهار أو الليل . لقد افسد الخوف حياتنا ، فاصبحت الحياة مرة المذاق .

قالت الجرادة :

— هيا معى إلى حفرة الماء السحرية . سأريكما كل شىء . .

وصل الثلاثة إلى حفرة الماء السحرية ، ووقفت الجرادة على حافتها متوكئة على عصاها ، بينما اشرأب الهدهد بعنقه إلى تلك الحفرة وأسرعت دقات قلب الفراشة .

قالت الجرادة :

— انظرا إلى هذا الماء الصافى . بعد لحظات ستريان فيه كل شىء .

ثم اخذت الجرادة تصيح قائلة :

— بحق هذا الصباح ، هبّى أيتها الرياح . أيتها الصواعق احضرى . أيتها الرعود زمجرى ، ويا أسرار الغد المجهول زلزلى الجبال واظهرى ، هنا فى حفرتى السحرية ، هنا فى حفرتى السحرية .

التصقت الفراشة بالهدهد فى هلع شديد وعيناها مثبتتان فى الحفرة السحرية . وهبت الرياح وزمجر الرعد ولمع البرق . قالت الجرادة :

— انظرا إلى الماء ، أتريان هذا ؟

رأت الفراشة فى حفرة الماء السحرية مخلوقا فصاحت قائلة فى رعب :

— إنه هو . إنه يشبه الذى رايته فى المنام .

قالت الجرادة :

— هذا هو المخلوق العجيب . إنه قادم من بعيد . قادم من بعيد .

قالت الفراشة وهى لا تزال ترتجف :

— وما اسم هذا المخلوق ؟

قالت الجرادة :

— إنه الإنسان ، أحد بنى البشر ، قادم إلينا من بعيد

قالت الفراشة وقد عجزت عن فهم ما قالته الجرادة :

— أحد بنى البشر ؟ ! ومتى سيأتى هنا ؟

قالت الجرادة :

— لن يظهر على سطح الأرض إلا بعد ملايين السنين . فلا تخافا ولا تحزنا إذ لا داعى للخوف قبل الأوان . ملايين السنين تفصله عنا .

قال الهدهد :

— وهل هو أفضل منا ؟

قالت الجرادة :

— سيمتاز عنا بالذكاء والعلم .

قال الهدهد :

— إذن فسيكون أسعد منا .

— كلا ، إن عقله سوف يشقيه .

قال الهدهد بدهشة :

— عقله يشقيه ؟ ! كيف ؟

— قد يُشقى العقل صاحبَه ويكون علمه سبب هلاكه !

— وهل يكون العلم سببا للهلاك ؟ !

ثم أشارت إلى حفرة الماء السحرية قائلة للهدهد :

— انظر ، إن ذلك الجنس البشرى سيسود الدنيا بعلمه . هاهو ذا أمامكما فى حفرة الماء السحرية يطير كما يطير الطير ، ويغوص كما يغوص السمك . ويصل إلى الكواكب ويرصد أبعاد النجوم ، وينتقل من مكان إلى آخر فى غمضة عين ، وسوف يتمتع البعض منه بالمسكن الفاخر والطعام الطيب ، ولكن الملايين ستظل فريسة الفقر والتعاسة ، وبدلا من أن يستخدم علمه وذكاءه لإسعاد بنى جنسه ، فإننى أراه هنا يحيد عن طريق الخير والصواب فيصبح علمه وبالا عليه ، ويجعل منه أداة للقتل والدمار .

قالت الفراشة :

— وكيف يصبح العلم أداةً للدمار ؟

قالت الجرادة :

— إذا سيطر الأشرار على العلماء .

— وهل سيظل هؤلاء البشر على ظهر الأرض طويلا ؟

— كلا ، لن يصغوا إلى حكمة الحكماء منهم ، فينتصر الشر على الخير ، ولذا فهم هالكون لا محالة .

قال الهدهد :

— وهل يتغلب الشر على الخير ؟

قالت الجرادة :

— يتغلب الشر لو ملك القوة ، ويملك القوة لو ملك القنبلة .

قالت الفراشة :

— وما هى هذه القنبلة ؟

قالت الجرادة :

— أداة رهيبة من أدوات الدمار سيتفتق عنها ذهن البشر . إنها الشر فى صندوق . دمارها أقوى من الزلزال ، وأبشع مما تفعله البراكين . زمجرتها أعلى من زمجرة أعتى العواصف . ينطلق منها الشر فيحصد الملايين .

قال الهدهد :

— وهل من الممكن أن ترينا فى حفرة الماء السحرية إحدى هذه القنابل ؟

قالت الجرادة :

— انظرا . هاهى ذى الدنيا أمامكما فى حفرة الماء كما ستكون بعد ملايين السنين . عندما يمتلكها البشر .

قالت الفراشة مبهورة :

— إنها دنيا جميلة . أجمل من دنيانا . ما هذه الأشياء العجيبة التى أراها فيها ؟

قالت الجرادة :

— أشياء تطير ، وأشياء تسير . ومبان شاهقة ، ومعاهد للعلم والمعرفة .

قالت الفراشة وهى لا تزال مبهورة بجمال ما تراه :

— هل كل هذا الجمال من صنع هؤلاء البشر ؟

قالت الجرادة :

— أجل . وسأريكما الآن شيئا آخر من صنع البشر . انظرا كيف يدمر الإنسان كل ما صنعت يداه . ستريان هذا فى الحفرة السحرية .

انبعث من الحفرة السحرية صوت انفجار رهيب جعل الفراشة والهدهد يرتعدان ، وطارت جميع الطيور وأسرعت الحيوانات الأخرى إلى الأنفاق . واحتبس صوت الغراب فى حلقه فلم يستطع النعيق ، وصاحت الفراشة قائلة فى فزع :

— ما هذا ؟ ما هذا الصوت الرهيب ؟

قالت الجرادة :

— إنه صوت انفجار إحدى القنابل الرهيبة . أرأيتما كيف يدمر الإنسان فى لحظة كل ما صنعه فى أجيال ؟ !

ونظرنا إلى الحفرة . لقد اختفت المبانى الشاهقة وتقوضت دور العلم . وانبعث من حفرة الماء السحرية صوت بكاء وصراخ وكأنه رجع الصدى . قالت الفراشة مرعوبة :

— ما هذه الأصوات الغريبة ؟

قالت الجرادة :

— إنه صوت الشقاء الذى سيعصف بالبشر .

قال الهدهد :

— كيف يقضى هذا المخلوق بيديه على كل هذا الجمال . ويجلب لنفسه كل هذا الشقاء ؟ !

قالت الجرادة :

— إنه سيدمر نفسه .

ارتعدت الفراشة والتصقت بالجرادة قائلة :

— أنا خائفة . خائفة من هذا الإنسان .

قالت الجرادة بهدوء :

— ولمَ تخافين ؟ إن ما رأته عيناك فى حفرة الماء السحرية لن يحدث إلا بعد ملايين السنين . عندما يظهر الإنسان على سطح الأرض . وعندما يظهر سيكون هو المخلوق الوحيد الذى يتفنن فى ابتكار طرق جهنمية لتعذيب بنى جنسه حتى يزول من الوجود ، ولن يبقى فى النهاية على ظهر الأرض سوانا نحن الحيوانات ، وتعود الدنيا كما هى الآن . خالية من هذا الإنسان .

صاحت الفراشة فى فزع :

— انظرا ، قرد فى أعلى الشجرة كان يسترق السمع لحديثنا . لقد قفز الآن وتوارى خلف الأغصان .

انبعث من خلف الأغصان صوت القرد يضحك . قالت الفراشة :

— علام يضحك هذا القرد ؟

قالت الجرادة :

— حذار من القرد .

قالت الفراشة :

— ولماذا تحذريننى من القرد ؟

قالت الجرادة :

— أنا لا أحب القردة . إنها أقرب الحيوانات شبها بالإنسان .

● ● ● ● ● ●

● محتويات الكتاب ●

	ص
● المؤلف فى سطور	٣
● نور الشفق	٥
● أفراح الملائكة	٤٤
● الموتى	٦٧
● القطار	٩٤
● ليلة العاصفة	١٠٦
● لا مكان	١٣٠
● فراشة تحلم	١٤١

سكرتير تحرير تنفيذى والرسوم الداخلية ● محمد عفت

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٠٨٩/٨٤

الترقيم الدولى ٣ – ٠٥٥ – ١٢١ – ٩٧٧ ISBN